رواية
إسلام أبو شكير
خفّة يد
المتوسط

إسلام أبو شكير

خفة يد

رواية

منشورات المتوسط

جميع الحقوق محفوظة©

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

حقوق النسخ © 2020 منشورات المتوسط - إيطاليا.

حقوق التأليف © 2020 إسلام أبو شكير

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Khefatu Yad by "Eslam Abushkair"
© Almutawassit Books / © 2020 Eslam Abushkair

المؤلف: إسلام أبو شكير / عنوان الكتاب: خفّة يد
الطبعة الأولى: 2020.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: 2020

ISBN: 978-88-32201-65-9

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / قيصرية المصرف - طابق أول / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

(١)

أحتفظ بحقيبةٍ ضخمةٍ أجمع فيها أوراقي عادةً. وللتوضيح، ولكي يكون المشهد المتخيّل دقيقاً، فقد كانت حقيبة ملابس في الأصل. عددٌ هائل من الوثائق الرسمية، وقصاصات الصحف، والدفاتر، ومسوّدات القصص والمقالات، والصور، والرسائل، وفواتير الشراء والبيع، والإيصالات، ووصفات الأدوية، وبطاقات الأعمال لأشخاصٍ لم أعد أذكر معظمهم، وأشياء أخرى كثيرة.. فوضى تراكمت مع الزمن، بحيث أصبح التفكير في وسيلةٍ للسيطرة عليها متعذّراً، وبات مفروضاً عليّ أن أتعامل معها على ألها أمرٌ واقع لا مجال لتجاوزه أو إصلاحه، رغم كلّ ما قد يستهلكه ذلك من وقتٍ وجهدٍ وحرقٍ للأعصاب كلّما أحوجتني الضرورة إلى شيءٍ ما.

كنت أبحث عن بطاقة ضمان هاتفي النقّال بعد أن تعطّل. لحسن الحظّ ألني وجدتها خلال وقتٍ قصيرٍ نسبياً. في حدود نصف ساعةٍ ليس أكثر. لم يكن قد تراكم فوقها الكثير، بحكم أنّ شهوراً قليلةً فقط قد مرّت على شرائي الهاتف. ولولا ذلك لاحتجتُ إلى ساعات، كما حدث مرّةً عندما كنت أبحث عن نسخةٍ من عقدٍ وقّعته قبل سنوات لطباعة أحد كتبي. وكانت الحصيلة حينها، إضافةً إلى نسخة العقد المطلوبة، جرحاً في ذراعي تسبّبت به حركةٌ عنيفة وأنا أحاول حشر الحقيبة في مكانها في الغرفة الصغيرة التي أستعملها كمخزن..

وجدتُ بطاقة الضمان الخاصة بالهاتف إذاً.. لكنني وجدتُ معها شيئاً آخر..

***

على ظهر الصورة ذوّن تاريخ التقاطها. 1986. أي قبل اثنين وثلاثين عاماً. صورتي وإلى جانبي صبيّةٌ أقدّر ألّها في مثل عمري آنذاك، أو أصغر قليلاً، بأشهر أو عام واحد لا أكثر. كنّا جالسين على حافّة سرير. يدي اليسرى تحيط بكتفيها العاريتين، واليمنى مسترخية على بطنها فوق السرّة، فيما كان رأسها مائلاً باتجاه صدري. ألمح أعلى ذراعها وشماً صغيراً. لا أستطيع أن أحدّد ما هو. على الفراش خلفنا كان ثمّة قطع ملابس مرميّة. قميص. وبنطال. وحمّالة صدر سوداء اللون. وقطعةٌ أخرى اختفى معظمها خلفي، ولم يظهر سوى جزء صغير لا يسمح بالبتّ فيما إذا كانت قبّعةً من الصوف، أو شالاً.. وعلى الطاولة الصغيرة أمامنا علبة مناديل ورقيّة، وفنجانا قهوة، وجريدة، وكتابٌ لم أتبيّن عنوانه لأنّه مقلوب على ظهره..

كانت ترتدي قميصاً داخلياً قطنياً أبيض، وكان ثلاثة أرباع صدرها يطفح من الياقة المدوّرة الواسعة، فيما كان ظلّ كلٍّ من حلمتي الثديين واضحاً من خلال القطن الرقيق. ظلّ بلون البنّ نصف المحروق، يبدأ ثقيلاً حاداً في المركز حيث الحلمة نافرةٌ كرأس هرم، ثمّ يخفّ شيئاً فشيئاً حتّى يذوب داخل بياض القميص..

درجةٌ حميميّةٌ تجعلني أستبعد أن يكون شخص ثالث قد التقط الصورة لنا. الأغلب ألّنا استخدمنا خاصّيّة المؤقّت الآلي في الكاميرا..

أغلقت حقيبة أوراقي، وجلست أتأمّل المشهد..

شيءٌ ما غير مفهوم..

ذاكرتي لا تحتفظ بأي تفصيلٍ يخصّ هذه الصبيّة. كما لو أنني لم أعرفها في يومٍ من الأيّام. أبداً. صبيّةٌ غريبةٌ عنّي بالمطلق. وهذا الموقف لا أذكر عنه شيئاً!!

هل كنت في حالة سُكرٍ في تلك اللحظة بحيث سقط من الذاكرة كلّ ما له صلةٌ بها؟ ربّما، مع أنني لست من النوع الذي يفرط في الشرب إلى درجة فقدان الوعي. ثمّ إنّ نظراتي وملامح وجهي وطريقة جلوسي توحي بأنني كنت في كامل صحوي.. صحيح أنّ شيئاً من الخدر كان واضحاً، لكنّه الخدرُ الذي يمكن تفسيره طبيعيّاً ومنطقيّاً عندما تكون فتاةٌ صاخبة الأنوثة كهذه بين ذراعيك؛ خدرٌ لا يتجاوز حدود النشوة التي تدير الرأس دون أن تعصف بالوعي، وتلقي باللحظة بعيداً عن نفوذ الذاكرة وسطوتها. على العكس. مثل هذا الإحساس من شأنه أن يثبّت اللحظة، لتكون علامةً من العلامات، لا تغيب، ولا تبهت..

لكنّ المشكلة لا تقتصر على هذا. ليست المشكلة في لحظة التقاط الصورة فقط.. ماذا عمّا سبقها من ساعات، أو أيّام، أو أشهر؟ وماذا عمّا تلاها أيضاً؟ يشغلني هذا السؤال، فمن الواضح أنّ قبل اللحظة تاريخاً ملتهباً وطويلاً من الأحداث والمغامرات. ومما لا شك فيه أنّ بعدها تاريخاً آخر يشبهه ولا يقلّ حرارةً عنه..

الصورة هي التي تقول، وليس أنا..

أين ذهب ذلك كلّه إذاً؟ أيعقل أن يسقط هكذا دون أن يخلّف وراءه أثراً، أيّ أثر؟!!

الشيء المهمّ الآخر. لماذا لم أرَ الصورة من قبل؟ كيف، وأنا أعود إلى هذه الحقيبة كلّ فترة، أنبشها، وأقلّب محتوياتها ورقةً ورقةً؟ هل دسّها أحد هنا دون علمٍ منّي؟ بافتراض أنّ هذا ما حدث، مع أنّه مستبعدٌ كلّيّاً باعتبار أنّ الحقيبة مؤمّنةٌ برقم سرّيّ، فضلاً عن أنّني لا أتركها في متناول الآخرين إطلاقاً، فمن الذي فعلها؟ ومتى؟ وما غرضه من ذلك؟!!

الأسئلة كانت كثيرة، لكنّ الوقت كان ضيّقاً أيضاً..

وضعت الصورة على أحد رفوف المكتبة. قلت:

- لتكنْ في متناول يدي..

وقلت أيضاً:

- نسيانٌ عابر. سأستعيد ما حدث قريباً..

افتراضٌ تصوّرت أنّه سهل وممكن. لكنّ الساعات التالية كانت صعبةً حقّاً. لم تغب فيها الصورة عن ذهني إطلاقاً. هذه الصبيّة. كيف لرجلٍ طبيعيّ أن ينساها؟ مثلها لا يمكن أن يمرّ في حياة إنسان مروراً عابراً. أنوثةٌ على هذا القدر من التوهّج ليست مجرّد مغامرةٍ طارئةٍ يعيشها رجل، ثمّ يلقي بها في سلّة مهملات ماضيه..

لن أغامر فأسقيه حبّاً. لكنّها حكايةٌ تتكلّم..

أستطيع أن أؤكّد. حقيقةٌ واضحة. محسومة. لا أختلق، ولا أتوهّم. عيناي في الصورة تقولان. وعيناها

كذلك. التفاف الجسد على الجسد يقول أيضاً. ليس لقاءً أولاً. ولا أخيراً. لا يمكن!!

القليل من الهدوء. لا جدوى من كلّ هذا الاضطراب. أحتاج فقط إلى أن أرتّب أفكاري..

لنبدأ بها واحدةً واحدة..

اثنان وثلاثون عاماً..

سنتي الجامعية قبل الأخيرة. الشقّة التي سكنتها في مخيّم اليرموك تلك السنة. السرير والطاولة في الصورة أذكرهما. جزءٌ من الأثاث فعلاً. واللوحة على الجدار خلفنا. أذكرها هي الأخرى. إحدى نساء موديلياني برقبتها الممطوطة وعينيها المريضتين. لوحة استنسخها صديق قديم. ما زلت أحتفظ بها، لا لقيمتها الفنيّة فهي متواضعة في الحقيقة، بل لارتباطها بالمصير الفاجع لصديقي. انتحر وهو في الخامسة والثلاثين. العمر نفسه الذي مات فيه موديلياني..

حسناً.. وماذا بعد؟..

للأسف.. هذا كلّ شيء..

هذه السنة بالذات لم تكن لي فيها علاقةٌ مع امرأةٍ. كانت سنةً معقّدةً من الناحية العاطفيّة، بعد النهاية المفاجئة لعلاقتي مع سمر المسيحيّة القادمة من صيدنايا. سيمو. حكايةٌ طويلةٌ لا ضرورة للخوض في تفاصيلها الآن. ما يهمّ أنّني في تلك السنة كنتُ خارج أيّ علاقاتٍ نسائيّة. وما كان يشغلني حينها هو موضوع الدراسة فقط..

لكنّ الصورة تقول غير ذلك..

الصورة تحكي عن امرأةٍ كانت في مركز حياتي تلك السنة. واضحٌ أنّها اقتطعت مساحةً واسعةً من دائرة انشغالاتي آنذاك.. أتأمّل التماعات العيون. الحرارة التي كانت تنبعث من جسدينا. هنالك هالةٌ تحيط بهما. ليست مرئيّةً بطبيعة الحال، لكنّه إحساسٌ قويّ بوجودها يقود إليه كلّ تفصيلٍ مهما بدا سخيفاً وتافهاً..

موديلياني على الجدار. الكتاب. الجريدة. فنجانا القهوة. الملاءة على السرير. قطع الملابس. الوشم أعلى الذراع..

كان كلّ ذلك أمام عيني. يتكلّم. غير أنّني لا أسمع شيئاً. لا أفهم. كما لو أنّ بيني وبينه حاجزاً من زجاج. أو كما لو أنّنا كنّا جميعاً ضمن كبسولةٍ مفرغةٍ من الهواء، بحيث تموت الأصوات لحظة تكوّنها. تختنق في مكانها، ثمّ تتبدّد في العدم..

(٢)

"خالص العزاء. عظم الله أجركم. لروحها السلام. ذكراها الباقية. ندعو لقلوبكم بالصبر والثبات. البقية في حياتكم. البقاء لله. ندعو لفقيدتكم بالرحمة والمغفرة. خاتمة الأحزان..".

بدايةٌ مرعبةٌ ليومٍ جديد. عشرات الرسائل تدفّقت دفعةً واحدةً في اللحظة التي اتّصل فيها الهاتف بشبكة النت. موتٌ يهجم دون سابق إنذار، فيسحق أيّ بذرة أملٍ يحتمل أنّها كانت تستعدّ للتفتّح والنمو..

كيف يمكن أن يبدأ شخصٌ يومه هكذا؟!

نهضت من فراشي مذعوراً والهاتف في يدي أتصفّح بسرعةٍ هذا الكمّ الهائل من الرسائل في محاولةٍ لمعرفة من هذا الذي يعزّونني به..

امرأة.. وواضحٌ أنّها تخصّني، ومقرّبةٌ إليّ جداً..

كنت كالمجنون. الهاتف في يدي، وأنا ألفّ حول نفسي في غرفة النوم. أتقدّم خطوات، وأعود خطوات. وعرقٌ غزيرٌ يغسل وجهي..

من الميّت؟

كنت ألهث وأنا أحاول أن أختصر الزمن كلّه إلى أقلّ من لحظة للقبض على الإجابة قبل أن تهرب..

فجأةً – وتماماً كما بدأت – انتهت المحنة. الزمن المضغوط الكثيف عاد إلى طبيعته. فتنفّست..

ثمّة خطأٌ قد وقع. هكذا. مجرّد خطأ. أدركتُ ذلك مع الرسالة الخامسة أو السادسة..

اتّضحت الصورة..

الحكاية - ولا أملك تفسيراً آخر - أنّ رقم هاتفي كان في وقتٍ من الأوقات لشخصٍ اسمه سلامة، ولسببٍ ما ألغي هذا الرقم، ثمّ صادف أن أصبح باسمي عند شركةٍ ما قبل بضعة أشهر. والظاهر أنّ البعض ما زال يحتفظ به تحت الاسم القديم.. كانوا يعزّونه بشخصٍ ما..

حدث مثل هذا مع أحد الأصدقاء عندما امتلك رقماً جديداً، ثمّ فوجئ فيما بعد باتّصالات ورسائل تطالبه بسداد ديونٍ عليه. وعندما تحرّى عن الأمر عرف أنّه مجرّد التباسٍ قادت إليه سياسة غبيّةٌ تتبعها شركة الاتّصالات في توزيع الأرقام على المتعاملين.

بالنسبة لي لم أدرِ ماذا أفعل. لكنّ شيطاناً استغلّ هذه الفوضى التي ضربت روحي في الصميم، فاستيقظ، وأخذ يخبط يميناً وشمالاً. يشتم سلامة والمتوفّاة وأصدقاءهما وكلّ من كانت له صلةٌ بهما..

ما ذنبي أنا لأبدأ يومي هذه البداية؟!!

مع فنجان القهوة الأول، وسيجارتين أو ثلاث تراجع الشيطان قليلاً، فأتاح لي مجالاً للهدوء والتفكير بعقلانيةٍ أكبر..

- لا بأس.. أخطاء معتادة. يحدث مثل هذا. ولا ضرورة لكلّ هذا الغضب..

وكان عليّ أن أجد طريقةً لتصويب الخطأ. على الأقلّ أنقذ نفسي من هذه الرسائل التي لا تتوقّف؛ وأعطي، في الوقت نفسه، فرصةً لأصحابها كي يوجّهوها إلى من يستحقّها.. لكنّ عدد الرسائل كان هائلاً، بحيث لم يكن من المعقول ولا المجدي أن أردّ على الجميع موضّحاً حقيقة ما حدث. اكتفيت بالردّ على ثلاث رسائل فقط اخترتها عشوائياً، وقلت:

- سيتكفّل هؤلاء بالتواصل مع الآخرين لتدارك الخطأ. ستكون بادرةً طيّبةً منّي أن أنبّههم، ليعملوا على البحث عن الرقم الجديد لصاحب العلاقة والقيام بالواجب تجاهه. هذا إذا كان الأمر يهمّهم فعلاً..

لم يكن صعباً أن أستنتج أنّ معظم من كتب معزّياً لم تكن تربطه بسلامة صلةٌ قويّة، إذ كيف لا يكتشفون مع مرور كلّ هذا الوقت أنّه غيّر رقم هاتفه، وأنّ الرقم القديم أصبح باسم شخصٍ آخر؟ ما من شك في أنّهم لم يكونوا على تواصلٍ معه. هم على الأغلب من معارفه البعيدين الذين يعزّون الآن من باب أداء الواجب لا غير. والمؤكّد أنّ ما يعرفونه عن الرجل وحياته الخاصّة محدودٌ جدّاً، لكن تناهى إلى علمهم بطريقةٍ ما نبأ المصاب الذي حلّ به، فأرادوا أن يقوموا بدورهم الذي يفرضه التقليد السائد.

وبالفعل، فعندما حاولت بدافع الفضول أن أتعرّف إلى شخصيّة سلامة، وإلى شخصيّة السيّدة الراحلة لاحظت أنّ التعزيات كانت في معظمها رسميّةً جدّاً، لذلك كانت الأشياء المهمّة التي توصّلت إليها قليلة.. صياغاتٌ تقليديّةٌ تقال دائماً، وتتكرّر على نحوٍ يفقدها كلّ خصوصيّة. شخصياً ألجأ إلى مثل هذه الصياغات عندما يكون إحساسي مقتصراً على الحزن والألم تجاه فكرة الفقد بشكلها العامّ، دون أن يتجاوزها إلى الفقيد نفسه.. في مثل هذه الحالة أجد في العبارات الجاهزة حلّاً يعفيني من أعباء التكلّف والادّعاء من جهة، ويؤدّي الغرض المطلوب اجتماعياً وإنسانياً من جهةٍ أخرى..

مما توصّلت إليه أنّ السيّدة التي كانوا يعزّون بها تدعى فاتن. وبالتحليل قدّرت أنّها زوجة سلامة. أمّا سبب الموت فظلّ غامضاً بالنسبة لي. هنالك جملةٌ وردت على لسان أحدهم استوقفتني قليلاً:

- اللهمّ انتقم ممّن كان السبب..

أرجّح أنّه حادث. ربّما. ليس حادث سيرٍ بالضرورة. لكنّه كان بفعل فاعل..

ما إن تجاوزت الساعةُ التاسعةُ صباحاً - وكنت ما أزال مستغرقاً في البحث عن معلوماتٍ أخرى تشبع فضولي - حتّى بدأت تردني اتّصالات. اتّصالٌ كلّ بضع دقائق في البداية، ثمّ اتّصالاتٌ متتابعةٌ إلى درجة مرعبة..

حاولت أن أشرح للمتّصلين طبيعة الالتباس الذي وقعوا فيه، والذي أدفع ثمنه دون ذنب. وفي لحظةٍ من

اللحظات لم أتمالك نفسي، فصرخت في أحدهم:

- هذه قلّة ذوق.. يا سيّدي أنا لست سلامة.. وهذا الميّت الذي تعزّون به لا يخصّني.. ارحموني رجاءً..

وأغلقت الهاتف في وجه المتّصل..

شعرت بالندم طبعاً. لم يكن ينبغي أن أكون بهذه الجلافة، خصوصاً أنّها حالة موت. مع الموت لا بدّ من ضبط للنفس. لا بدّ من حدّ أدنى من الهدوء ومحاولة تفهّم مشاعر الآخرين..

لكنّني كنت محاصراً. مضغوطاً. لم يتركوا لي مجالاً لأخذ النفس..

بدايةُ سيّئةٌ ليومٍ جديد. ومع ذلك حاولت أن أتجاوز الأمر. حمّام. وإفطار. ومحاولات للكتابة. لكنّ الرسائل والاتّصالات كانت تفسد كلّ شيء. وممّا جعل الوضع أكثر سوءاً أنّ الأرقام التي تردني كانت مجهولةً كلّها. ليس بين أصحاب الرسائل أو الاتّصالات شخصٌ واحد أعرفه، وإلّا كنت شرحت له حقيقة ما يجري، وطلبت منه أن يساعدني في حلّ الإشكال..

رغم هذا كنت أعود إلى الرسائل بين الحين والآخر. أستعرضها، وأحاول أن أجمع قدراً إضافيّاً من المعلومات. فضولٌ لم أتمكّن من مقاومته. إلى أن لاحظت أنّ اسماً آخر بدأ يتردّد. اختفى اسم سلامة فجأةً. هناك من يدعوني الآن يوسف. أنا الراحلة فحافظت على اسمها. فاتن..

عدت إلى الرسائل القديمة لأتأكّد فاكتشفت أنّ الخطأ منّي. لم يكن لسلامة وجودٌ أصلاً. والرجل الذي كان يتلقّى التعازي هو يوسف منذ أوّل رسالة..

من أين جاء هذا الاسم سلامة؟

كنت متعباً. استهلكني الأخذ والردّ وطول التفكير..

وقرّرت في النهاية إغلاق الهاتف..

***

كان يوماً كئيباً بحقّ.. موتٌ يطاردني رغم أنّه لا يعنيني. مزاجٌ مضطربٌ حال بيني وبين كتابة المقال الذي يفترض أن يرسل صبيحة اليوم التالي على أبعد تقدير. عزلةٌ فرضتها على نفسي بضع ساعات بإغلاق الهاتف، مجازفاً بضياع اتّصالاتٍ تخصّني فعلاً، وقد تكون مهمّة..

مذيعو نشرات الأخبار الذين كان الدم يسيل من أفواههم. الأفلام الكئيبة. الأغاني الهابطة. الضجيج في الشارع.. كآبةٌ لا يبدو أنّها ستتوقّف.. الأموات وحدهم لا يشعرون بفداحة ما يجري..

غير أنّه لم يكن لكلّ ذلك أن يستمرّ إلى ما لا نهاية.. حمّام مسائيّ سريع، وفنجان قهوة على البحر. ثمّ كان لا بدّ من الإفراج عن الهاتف.. الفضول مرّةً أخرى لمعرفة أين أصبحت حكاية السيّد سلامة وزوجته. أو يوسف. ما

اسم هذا الرجل؟

اللعنة.. كما لو أنّ النحس لا يريد أن يتوقّف.. الهاتف معطّل.. لا يعمل..

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

(٣)

- سأكتب عن موديلياني..

في الرابع والعشرين من كانون الثاني عام 1920 أطلق أميديو موديلياني النار على نفسه. كان مع مجموعة من أصدقائه في رحلة صيد في إحدى ضواحي باريس. غريمه اللدود بيكاسو كان أحدهم، وهو الذي روى ما حدث فيما بعد. طلب إليهم، وبندقيته في يده، أن يصطفوا ليعرض أمامهم شيئاً. ثم رفع البندقية. وعلى مرأى من الجميع أدخل فوهتها في فمه، ثم.. ضغط على الزناد.. هكذا.. بهذه البساطة..

في اليوم التالي انتحرت صديقته جيني عندما قفزت من الطابق الخامس، وكانت حاملاً منه.. يقول بيكاسو إنه توقف عن الرسم عاماً كاملاً بعد الحادثة..

مجزرة تسبب بها. ثلاثة أرواح خلال يومين. هو. وجيني. والجنين الذي كان يفترض أن يولد بعد بضعة أشهر.. من كان يتوقع كلّ هذا، خصوصاً عندما نعرف أنّ موديلياني كان في وقت سابق قد أنقذ عائلته من الموت جوعاً جرّاء الديون التي تراكمت عليها؟ فعل هذا وهو جنين لم يولد!! كان الدائنون قد اقتحموا المنزل ومعهم ضبّاط المحكمة التنفيذيّون بنيّة مصادرة أملاك العائلة؛ لكنّ موديلياني، وهو في رحم أمّه يستعدّ للخروج مسبّباً لها آلام المخاض، أجبر هؤلاء على الانصراف دون أن يصطحبوا معهم سوى بعض الأشياء التافهة التي لا قيمة لها. ستارة قديمة. أحذية بالية. خزانة خشبيّة فارغة ومتداعية. لعبة أطفال رخيصة. علبة دبابيس شعر.. استثمرت العائلة بذكاء مادّةً مهملةً في القانون، تحظر على الدائنين مصادرة سرير امرأة حامل، أو من تحمل طفلاً حديث الولادة، فتمّ إخفاء الأوراق النقديّة وجميع المقتنيات الثمينة داخل السرير، وفي حشوة الفراش، وبين ملابس الأمّ.

(جرائم موديلياني).. كان هذا هو العنوان الذي اخترته لمقالتي..

غمرني إحساس لذيذ بالرضا لما كتبت، لكن عليّ الإقرار - رغم ذلك - بأنّ الموضوع برمّته كان خارج دائرة تفكيري أصلاً. هنالك ما دفع بي نحو هذا الموضوع دفعاً، غير أنّني لا أستطيع أن أحدّد طبيعته بالضبط. لم يكن موديلياني ضمن القائمة التي أعددتها مسبقاً للكتابة عنها هذه الفترة. بل إنّني لم أكن مهتمّاً بموديلياني أصلاً. تجربته مثيرةٌ بلا شك، ونساؤه خصوصاً ملهمات، لكنّني كنت أبحث عن تجارب أكثر حداثةً، ومن واقع الثقافة القريبة، وذلك بحكم طبيعة الصفحة التي أنشر فيها.

وللأمانة فقد كنت أنوي الكتابة هذا الأسبوع في موضوع شخصي نوعاً ما لأنّه يمسّ أحد أصدقائي. كنت أريد الكتابة عن عروة المدني طبيب الأسنان الذي اعتزل المهنة، وتفرّغ لتبديد نصيبه من الثروة التي تركها له أبوه على جمع اللوحات والتحف. أنفقها كلّها. كان مجنوناً تقريباً..

هذه المقتنيات ضاعت بدورها. أو إنّ مصيرها مجهول اليوم. لا أحد يعلم بالضبط ما انتهت إليه. كان قد دفنها في أحد جرود قريته في ريف دمشق قبل أن يغادر إلى السويد هارباً من احتمال الموت. أردت أن أصوّر اللحظات التي كان يغلّف فيها مقتنياته بالبلاستيك قبل أن يهيل التراب عليها، ويدسّ مع كلّ قطعة أكياساً من حبيبات السيليكا لضمان ألّا تتلفها الرطوبة.. كانت السيليكا حنوطاً، والبلاستيك أكفاناً، أمّا القطع فكانت أطفالاً صغاراً.. هكذا تخيلت الأمر..

التقيت عروة المدني أوّل مرّة هنا في دبي قبل خمس سنوات. أرسل لي يخبرني أنه سيكون في زيارة لبضعة أيام لرؤية أمّه، وأنه اتفق مع أصدقاء آخرين للقاء في الآيريش فيلدج (The Irish Village). كان ما يزال مفجوعاً بشقيقه الأصغر الذي مات تحت التعذيب بعد مغادرته سوريا بقليل. حدثنا عن لحظة اعتقاله كما وصفتها له أمه وشقيقه الآخر. الأمن والشبيحة والبنادق الآلية والوجوه المقنّعة. كان هو نفسه مطلوباً للاعتقال أيضاً، لكنّ الحظ كان إلى جانبه في ذلك اليوم.

كان في ذهني أيضاً أن أعرّج على شخصية سوسن ملّاك التي حضرت اللقاء. ممثلة مسرح وسينما فقدت عينها اليمنى. ثمّة بياض يمكن ملاحظته لمن يتأمّلها عن قرب. علمتُ أنّ الإصابة حدثت نتيجة لكمة تلقتها أثناء التحقيق معها..

لم تكن لي معرفة سابقة بسوسن، ومع ذلك فعندما دخلت المكان وصافحتُ الموجودين كانت سوسن المرأة الوحيدة التي عانقتني. تبادلنا أربع أو خمس قبلات، ثم سحبتني للجلوس إلى جوارها. أمسكتْ بكفّي ومرّرتْها على شفتيها، ثم ضمّتها إلى صدرها..

كنت مرتبكاً، والمؤكّد أنّ الجميع لاحظ ارتباكي بمن فيهم سوسن نفسها. بدا عليّ أنّني محرج. لم أستطع إخفاء ذلك. لكنّها استمرّت مع هذا.. التفتت نحوي ووجهها يكاد يلتصق بوجهي، وسألتني عن أحوالي، ثم أضافت:

- لم تتغيّر كثيراً..

كانت الكلمات تخرج من حنجرتها دافئة وحلوة. نبرة صوتها مميّزة. تتكلّم، ثم تترك صدى غير مسموع يرفرف في الهواء. تشعر به يدوّم حولك زمناً غير قصير. وخلال ذلك تضطرّ إلى الصمت ريثما يختفي تماماً، ولا يبقى منه شيء..

ثم التفتتْ إلى الحاضرين..

- أكثر من ثلاثين عاماً.. هذا الرجل صاحب ألذّ قبلاتٍ في العالم..

وضحكتْ معهم. ضحكت رغم أنّني لم أفهم شيئاً. امرأة من عالم آخر. زاوية صعبة وجدت نفسي محشوراً فيها. عن أيّ أعوام تتكلّم؟ وأيّ قبلات؟

لم تكمل سوسن الجلسة معنا. انسحبت بعد أقلّ من ساعة. كان واضحاً أنّها مجروحة. وأنا بدوري لم أكمل. انسحبتُ بعدها بقليل..

كان لقاءً غريباً!

منذ ذلك الوقت لم أرَ سوسن. لم نلتقِ قطّ. منذ أيام فقط قرأتُ خبراً عن وفاتها في ألمانيا بسرطان الرئة..

***

ومع ذلك فقد كانت مقالةً معقولةً عن موديلياني. أما مقتنيات عروة وعين سوسن فإلى الأسبوع المقبل. يمكن الانتظار..

شعرت بارتياحٍ كبير بعد أن أنجزت عملي. وكان عليّ كما هو الحال في كلّ مرّة أفرغ فيها من كتابة شيء يعجبني أن أكافئ نفسي بعلبة بيرة مثلّجة..

لست مدمناً، لكن لا بأس بالقليل في لحظات الرضا عن النفس. ويبدو أنّ حالة الرضا كانت هذه المرّة أعمق وأوضح. علبتان حتى الآن، وهنالك رغبةٌ في المزيد..

كانت العلبة الثالثة على وشك أن تفرغ عندما تذكّرت شيئاً..

ضربت جبهتي بقبضة يدي وأنا أصرخ:

- ما هذا الذي فعلته؟!!

فضيحة..

لحسن الحظ لم أكن قد أرسلت المقالة بعد. موديلياني. من أين جاءتني هذه المعلومة الغبيّة؟ من قال إنّه انتحر؟!! ما الذي كان في ذهني وأنا أكتب هذا الهراء كلّه؟!

موديلياني..

مات مريضاً. عاجزاً.. السلّ، والشراب، والمخدّرات، والفقر. وجيني. وبيكاسو. والغربة.. شبه منتحر، ولكن ليس برصاصة من بندقية صيد..

وعدت إلى المقالة لأعدّلها. فتحت جهاز اللابتوب. المقالة أمامي الآن. لكنّ موديلياني لم يكن له وجود. اختفى تماماً..

هنالك عروة المدلي ومقتنياته. هنالك سوسن الممثّلة ذات العين البيضاء. فقط. مقالةٌ كاملةٌ كما لو أنّني أنا الذي كتبتها حقّاً!!

(٤)

لا نلتقي إلّا في المصعد. على هذا المنوال منذ بضعة أشهر. منذ انتقلتُ إلى هذا البناء. تسكن في الطابق نفسه. الحادي والعشرين. نلتقي ولا نتكلّم. مجرّد تحية بسيطة وسريعة:

صباح الخير، مساء الخير، مرحباً...

وينتهي الأمر عند هذا الحدّ..

ويتكرّر ذلك كلّ بضعة أيام. كلّما التقينا. هكذا. بتفاصيله القليلة هذه. ودون أيّ تغيير يذكر، سوى أنّ اللقاء يحدث في أوقات مختلفة غير منتظمة. قد أراها واقفة تنتظر فيكون دوري في إلقاء التحية أوّلاً، أو قد تبدأ هي التحية عندما أكون أنا في موقف الانتظار. وخلال وجودنا داخل المصعد لا نتكلّم أبداً، حتى عندما نكون منفردَين.

لم أفكّر يوماً في تجاوز هذا الحدّ في علاقتي بجارتي. وأنا بشكل عامّ لا أعدّ نفسي مبادراً في أيّ سلوك. خصوصاً في العلاقات التي تربطني بالآخرين، بما في ذلك علاقاتي النسائية، هذا إذا جاز لي أن أستخدم هذه العبارة في وصف تجاربي المحدودة والمتباعدة زمنياً مع النساء. حتى عندما تروق لي امرأة، فأنا أميل إلى اتّخاذ وضعيّة الرجل البارد المحايد غير المكترث. تساعدني في ذلك ملامح وجهي التي توصف عادةً بأنّها ملامح جادّة، بل تميل إلى الصرامة. لكنّ هذا لا يعني أنني لا أفكّر في الموضوع نهائياً. الواقع أنّني في ذلك أمارس نوعاً من اللعب لا أدري إن كان نظيفاً أو قذراً. بطريقةٍ ما أحرّك – وبصمتٍ وهدوءٍ وعلى نحوٍ سرّيّ دائماً – أجهزة استشعار داخليّة كوّنتُها وطوّرتُها مع الزمن. أفردها في كلّ الاتّجاهات، محاولاً التقاط أيّ إشارة خارجة عن السياق. ابتسامة. حركة يد. ومضة عين. كلمة. تصرّف غير معتاد.. أيّ شيء يمكن أن أفسّره على أنّه تعبير عن استعدادٍ للقبول فيما لو رغبتُ بالتقدّم خطوةً إلى الأمام. في هذه الحالة فقط يمكن أن أتصرّف. باستثناء ذلك فأنا الرجل الذي لا يرى، ولا يلاحظ، ولا يهتمّ..

ربّما ضلّلتني أجهزة الاستشعار هذه في بعض المواقف، لكنّها في السنوات الأخيرة، وبفعل التدريب المستمرّ، أصبحت النتائج التي تعطيها دقيقةً إلى الحدّ الذي جعلني أمنحها ثقتي المطلقة. أنصتُ إليها جيّداً، وآخذ بكلّ ما تقول. يمكنني الادّعاء بأنّها الآن على قدرٍ عالٍ من الكفاءة، بحيث لا أتردّد في الانسحاب مع أيّ إيحاء تقدّمه لي بضرورة ذلك. كما لا أتردّد في الاقتحام – أصبحُ وقحاً في بعض الأحيان – عندما تأتيني النتائج إيجابيّة:

- أنتِ في الأمان. يمكنك أن تتصرّف..

يفسّر ذلك البرود الذي اكتنف علاقتي بجارتي طيلة الفترة الماضية. وجارتي امرأة مثيرة في الحقيقة. ليست من النوع فائق الجمال، لكنّها تلفت الانتباه. انتباهي أنا على الأقلّ. متوسّطة القامة. بشرة حنطيّة. ممتلئة قليلاً، ولكن دون أن تصل حدّ البدانة. يخيّل لي أنّها ليست مهووسةً بقضّة النحافة والرشاقة، وإن كان لديها ما يكفي من اليقظة كي تسيطر على سلوكها بهذا الخصوص. لا أظنّ أنّها نهمة في الطعام والشراب، وفي الوقت نفسه هي لا تحرم نفسها من شيء..

يستوقفني حرصها الواضح في جميع ما ترتديه من ملابس (فستان، قميص، بلوزة...) على أن يظلّ صدرها نافراً وبارزاً إلى الأمام. تعرف أنه نقطة قوة في جمالها، وتعرف كيف تستثمر ذلك. وهو جميل بصراحة، ومثير جداً، خصوصاً عندما ترتدي شيئاً يكشف عن أجزاء واسعة منه، حيث يصبح مفرق الفخذين موضع الجذب والاستقطاب الأقوى قياساً إلى ما عداه، مع عددٍ غير هين من التساؤلات الشزيرة عما هو أبعد وأعمق.

يستوقفني كلّ ذلك، ومع هذا لم أفكر في الإقدام على أيّ خطوة من شأنها أن توحي لها بأنني مهتم. يحتاج ملي ضبط النفس إلى جهدٍ مضاعف بلا شك، لكنني أتدبر الأمر، وأنجح دائماً. وما يعينني على الالتزام بهذا الحدّ هو طبيعة ملامح وجهها. هنالك نوعٌ من ملامح الوجوه التي يصعب تصنيفها في إحدى الخانتين: الشهوانية والبراءة. أنوثة كاملة النضج، صارخة، متوهّجة؛ لكنّ فيها مع ذلك ملمحاً طفولياً. هذا المزج بين النقائض يُصعّب عليّ اتخاذ قرارٍ حاسم. يضعني في دائرة مغلقة من الشك أفتقد فيها القدرة على تمييز أيّ نوع من السلوك هو الأنسب..

ولأنني ملولٌ بطبيعتي، ولا أحبذ الاستغراق كثيراً في البحث والتأمل وإجراء الحسابات، خصوصاً أنها مجرّد جارة في النهاية، فقد التزمتُ بالوضعية الباردة المحايدة طيلة ذلك الوقت. أضيفُ إلى ذلك أنّ أجهزة الاستشعار التي حزتها مرّات عديدة لم تلتقط أيّ إشارة مشجّعة. وكنت أحترم هذا، وأتفهمه. اعتبرتُه خيارها، وإذا أردنا الصراحة فهو لا يختلف كثيراً عن خياري..

وهكذا؛ بدا لي أنّ شيئاً لن يتغيّر إطلاقاً. قد يمتدّ بنا العمر سنوات، وستظلّ هذه هي حدود علاقتنا.. صباح الخير.. مساء الخير.. لا بأس. وهي حدود مريحة لا سيّما أنها منسقة نوعاً ما مع رغباتنا الداخلية. وبكلّ الأحوال فأنا لن أقدم على أيّ خطوة، لا أريد. أو ليس من عادتي أن أُقدم. ليكن. ما الضير؟

لكنّ مسار الأحداث هذه المرّة اختلف قليلاً.. ثمة إشارات غريبة بدأت تنحزك منذ رأيتها تلتفت نحوي بعد أن سمعتْ خطواتي وأنا أتقدّم في الممرّ فيما هي واقفة تنتظر عند المصعد. إشارات تزداد قوّةً ووضوحاً مع كلّ خطوة أتقدّم بها. والواقع أنّ التفاتتها نحوي ليست هي الإشارة التي أقصدها بالضبط، فهذا يحدث دائماً. وهو طبيعيّ يمكن توقّعه من أيّ شخص يسمع خطوات تتّجه نحوه. فضول قد يكون غريزياً. الجديد هنا أنّ نظراتها ظلّت مثبتةً عليّ. لم تُدِر رأسها أو تخفضه كما جرت العادة، بل واصلت النظر على نحوٍ ثابت وجريء غير مسبوق أبداً.

أثارت هذه النظرات انتباهي طبعاً. غير أنني حافظت - وأنا أتقدّم باتجاهها - على مبدأ الحياد الذي ألزمتُ نفسي به منذ البداية، إلى أن أصبحت المسافة بيننا مناسبة، فبادرتها بالتحيّة المقتضبة المعتادة:

- مساء الخير..

وكالعادة أجابت:

- مساء الخير..

وبما أنّه من المفترض أنّ الحديث وصل إلى نهايته، فقد أشحتُ بنظري عنها. غير أنني كنت بحاجة إلى ما أشغل به الوقت ريثما يصل المصعد. أخرجت من جيبي هاتفي المعطّل أتفقّده. أحاول تشغيله، لعلّ وعسى. كنت أعلم أنّه لا جدوى من ذلك، بعد كلّ ما بذلته من محاولات سابقة أمس واليوم، لكنها حركة تمثيلية

ضرورية أداري بها ارتباكي الداخلي. لا بدّ من عمل شيء يعطيها انطباعاً بأنني غير مبالٍ، أو أنّ لديّ ما هو أهمّ وأجدى.. هكذا تقضي قواعد اللعبة..

ثمّ دهمني صوتها:

- سلامتك..

جملة مضافة لم تُستخدم من قبل. مرحلة جديدة في العلاقة تدشّنها كلمة. ولا يفوتني أن ألاحظ ما في الكلمة من إحساس خاص. كما لا يفوتني أنّها غير مكتفية بذاتها. صياغة محكمة تفرض عليّ أن أردّ عليها بإجابة أيّ إجابة. والإجابة ستجرّ بعدها حديثاً قد يطول، وقد يقصر..

حدسي بوجود إشاراتٍ غريبةٍ كان في محلّه إذاً. لم أخطئ. لكنّ الوقت ما زال مبكّراً لإطلاق أيّ حكم. النتائج لا تأتي بسرعةٍ هكذا. لذلك كان الخيار أن أجاريها، كسباً للوقت، ورغبةً في إعطاء نفسي الفرصة لالتقاط المزيد من الإشارات، في حال صحّت توقّعاتي..

- الله يسلّمك..

قلت وأنا أفكّر في معنى هذه الإضافة ومناسبتها..

هل تعني أنّها افتقدتني في الأيّام الماضية؟ هل تريد أن تطمئنّ؟ أم أنّها مجرّد ثرثرة؟ النساء عموماً يكثرن من الكلام، حتّى مع الغرباء، عندما يجدن الذريعة المناسبة..

تساءلت بيني وبين نفسي مستغرباً، ولا شكّ أنّ استغرابي هذا قد ترك أثره على ملامح وجهي، رغم كلّ محاولاتي للسيطرة على هواجسي الداخلية القلقة وغير المستقرّة، بما في ذلك تلك الابتسامة الباهتة المفتعلة التي ارتسمت على شفتيّ.

لقد لاحظت ذلك. والأغلب أنّها شعرت بأنّ سوء فهمٍ بيني وبينها قد حدث على نحوٍ ما. أدركتُ هذا من نبرة صوتها الجادّة الرصينة:

- ألم تنتبه؟ هنالك دم على جبينك!!

قالت وهي تشير بإصبعها إلى رأسي..

ملاحظة نقلتني من عالم إلى آخر. شيء كدلوٍ من الماء المثلّج يندلق على الوجه أثناء النوم..

بدوت كالأبله أمام نفسي وأنا أرى أنّ كلّ حساباتي قبل قليل تنهار أمام عينيّ. لم تكن سوى أوهام صبيانية طائشة وحمقاء. نوع من المراهقة لم أتوقّع يوماً أنّني سأعيشه في هذا العمر. ما هذا الذي أنا فيه؟ إفراط مضحك في الثقة بالنفس. ذكوريّة سخيفة وجدت نفسي مستغرقاً فيها. امرأة. وإشارات. وتديان. وألغاز وتحليلات. وابتسامات... أيّ سخافة! وقلّة عقل! واعتداء على الخصوصيّات! وتطفّل! وسطحيّة تفكيرا

وبحركة تلقائية سريعة ارتفعت يدي إلى جبيني تتحسسه. نعم. ثمة سائل لزج دافئ. نظرتُ إلى أصابعي، وكان دماً بالفعل. وكان غزيراً...

لا أذكر إن كنت قد استأذنتها قبل أن أنصرف أم لا. المهمّ أنني كنتُ خلال دقائق في حمّام منزلي أمام المرآة. نظرتُ لأرى ما حدث. كنتُ مرعوباً في الواقع. دمٌ يتدفّق من جبهتي، ولم أشعر به!

نظرة أولى. سريعة. خاطفة. لكنّها كافية..

حالة لا توصف من الارتباك والذعر، أو لنقل الصدمة، لا لأنّ الإصابة كانت أكبر ممّا توقّعت، بل لأنّ جبيني كان سليماً تماماً! هكذا! ما من دم هناك! لا أثر لأيّ جرح، أو خدش، أو أيّ نوع من الإصابات! ثم تأمّلت أصابعي التي تلوّثت بالدم قبل قليل عندما تحسّستُ جبيني عند المصعد. كانت نظيفةً هي الأخرى!

جارتي اللعينة.. كيف فعلت بي ذلك؟! وما الذي تعنيه؟!

https://t.me/riwaya2025 روايات وكتب عربية وعالمية

(٥)

سوسن مَلاك..

عرفت عن موتها بدايةً من الفيسبوك. أعادني الحدث إلى لقائي بها هنا في دبي، وتجدّدت الأسئلة التي أثارها ذلك اللقاء..

- صاحب ألفَ قبلات في العالم!

أضحك كلّما تذكّرتُ تلك العبارة. هل هي مجنونة؟ ما هذه الجرأة!

أصدقاء كثر نعوها. فاجأني الخبر في الحقيقة، وتألّمتُ له. تبيّن لي من خلال ما كُتِب عنها أنّها تمتلك شبكة واسعة من العلاقات. صور كثيرة لها ملأت صفحات الأصدقاء على الفيسبوك. منها ما هو شخصيّ، ومنها ما هو مقتطفٌ من أعمالٍ فنيّةٍ لها. مسرحيّة وسينمائيّة خصوصاً. بعض هذه الصور قديم نسبياً. بإمكاني أن أستنتج كم كانت جميلة. لا أعني جمال الممثّلات التقليديّ الذي يستمدّ قوّته وحضوره من الجسد وحده. الإغراء والغواية. فيها شيءٌ من ذلك بصراحة، لكنّه يأتي ثانياً بعد الجمال الخفيّ الذي يشعّ دون أن يعرف أحد أين تقع نقطة الإشعاع بالضبط. هذا ما يسمّونه الجاذبيّة أو السحر؟

ليس لديّ معلومات عن حياتها الخاصّة، غير أنّ بوسعي من خلال هذه الجولة على صورها، ومن خلال لقائي السريع بها، أن أتوقّع أنّها حياة تعاني من فجوات، أعني أنّها عاشت علاقاتٍ دافئة واستمتعتْ بها، غير أنّ ثقة زمناً فارغاً يفصل بين العلاقة والأخرى، وهذا الزمن الفارغ بالذات كان يؤلمها. ألمح ذلك بطريقةٍ ما.

بوسعي أن أستنتج أيضاً أنّها شخصيّة غاضبة في الأصل. الكثير من المرح وخفّة الدم، لكنّ الأصل هو العدام الرضا. يمكن أن تحتجّ على أبسط الأشياء. كلمة. حركة. كومة قمامة أمام مبنى البلديّة. صنبور مياه مفتوح. إعلان عن أغنية مبتذلة أو فيلم هابط أو مسرحيّة للتهريج. شخص يناديها خطأً بغير اسمها: نور، سميرة، ماري، علياء... ويمكن أن تبكي جزاء ذلك..

تبكي كثيراً، ولكن ليس أمام الآخرين..

هل بدأت أهذي؟ هل يمكن أن أعرف كلّ هذه التفاصيل من لقاء وحيد، وبضع صور؟

طبعاً لا.. هي مجرّد انطباعات. مشاعر دقيقة تكاد لا تُلمس ولا تُدرَك علِقتْ في داخلي، وأحاول أن أسجّلها. لا يهون عليّ أن تضيع..

عرفت كذلك أنّها منخرطة في العمل السياسيّ بقوّة. جانب غير مفاجئ طبعاً، فهي معتقلة سابقة، لكنّ الجديد بالنسبة لي أنّها شاركت في مناسبات كبيرة لها ثقلها. هنالك كلمة لها في الأمم المتّحدة. شاهدتُ تسجيلاً لها. كانت مؤثّرة جدّاً. لا أثق عادةً بالممثّلين في مثل هذه المواقف، لأنّ أداءهم مفتعل على الأغلب. لا يستطيعون الخروج من جلودهم. ينقلون مهنتهم إلى المنبر. حركات الأيدي صعوداً وهبوطاً وتلويحاً وإيحاءً بالطيران أو الغرق أو العناق وما إلى ذلك من المبالغات. نبرات الصوت التي تتلوّن. ملامح الوجوه التي تنقبض

وترتخي بحسب الموقف. كلّ ما فيهم يصرخ:

- أنا أمثل..

سوسن ملّاك كانت استثناء. راقبتها جيداً. ربما كانت تنتحب في الداخل. وتشهق. وتفقد وعيها. وتموت. وتحيا. وتنهار. وتنزف.. لكنّ أياً من ذلك لم يظهر على الإطلاق. لم تأتِ لتقول:

- أريد أن أرغمكم على التعاطف مع قضيتي..

ما كان يشغلها أن تقول فقط، وتترك الأمر للضمير. لا يحتاج الضمير إلى أن تمثل عليه ليقتنع، أو يتأثر..

***

عموماً، وبعيداً عن ذلك كلّه - وهو في النهاية محض تخمينات -، فقد استغربت هذا الحجم من الاهتمام الذي لقيه موتها. التقيت بها تلك المرّة، وعرفت أنها ممثلة. قدّمها إليّ عروة. لكنني لم أقدّر أهمّية تجربتها. يجب أن أعترف. لم يكن اللقاء طويلاً آنذاك. فقد انسحبتُ سريعاً. بعد أقلّ من ساعة. ومع ذلك فقد لفتت انتباهي من حيث هي شخص. امرأة مهيمنة. قوّة الشخصيّة. الأناقة. الحضور الطاغي. والأنوثة بطبيعة الحال.. يضاف إلى ذلك المحنة التي مرّت بها. ظروف اعتقالها، وفقدانها إحدى عينيها.. أثّرت بي هذه القصّة كثيراً.. أمّا ما عدا ذلك فلم يستوقفني شيء، أعني تحديداً عملها في المسرح والسينما، معتقداً أنّها واحدة من بين آلاف الممثلين والممثلات الذين يؤدّون دوراً ثانويّاً في عمل ما، ومع ذلك يقدّمون أنفسهم على أنّهم نجوم. وباء منتشر كثيراً هذه الأيّام. وما عزّز اعتقادي هذا أنّني لم أسمع بها من قبل، رغم أنّني أعدّ نفسي من المتابعين الجادّين للحراك الثقافي في البلد.

ثمّ نسيتُها بعدئذٍ. أفسّر ذلك الآن بأنّه لم يحدث بعد لقائنا ما من شأنه أن يجدّد اهتمامي بها. لم يتكرّر اللقاء. لم يجرِ أيّ تواصل. بل لم يذكر أحد اسمها ثانيةً أمامي.. إلى أن كانت وفاتها، وأجواء الحزن والصدمة التي رافقتها.

لا ألوم نفسي على عدم تقديري أو حتّى معرفتي بتجربتها الفنّية. قد تكون وراء ذلك سنوات غربتي الطويلة، وما فرضته عليّ من عزلة أو قطيعة. الأغلب أنّ الأمر كذلك. كما أنّ طاقة البشر على الإحاطة بما يدور حولهم تظلّ محدودةً في النهاية. لا بدّ من أن يسقط شيء هنا أو هناك.

أنا الآن لا أفكّر في ذلك الموقف الذي أرادت من خلاله أن توحي للحاضرين بعلاقة سابقة بيني وبينها. قبلات. كانت مضحكةً بالفعل.. هههههههه.. لا أدري كيف خطر لها مثل هذا!!

أعدّ ذلك أمراً شخصيّاً أحتفظ به لنفسي. ما يهمّني أكثر أن أقترب من عالمها. ما قرأته لدى الأصدقاء الذين نعوها مثير ومشجّع. نعم. أشرت إليها في مقالتي التي أرسلتها قبل قليل. لكنّها إشارة عابرة، وفي سياق حديثٍ آخر يتعلّق بمقتنيات عروة المدني أساساً، والخسارة الفادحة التي ستنجم فيما لو تعرّضت للتلف، وهو أمرٌ متوقّع للأسف. كانت مقتنياتٍ ثمينةً بالفعل. لديّ معلوماتٌ عن بعضها..

لكنّ ذلك لا يكفي حتماً.. سوسن ملّاك.. نموذج مختلف. أظنّ أنّ من الإنصاف أن أكتب شيئاً خاصّاً بها.

سأتحدث عن إصابتها أيضاً. أتعاطف معها في هذه النقطة بالذات نظراً لأنني أحمل واحدةً مثلها. لم تكن إصابة في العين اليمنى، بل كسراً في ذراعي اليسرى. ما زالت ملتوية قليلاً، وما زالت حركتها غير طبيعية.

ليس الآن طبعاً. أتكلّم عن المستقبل. ربما في ذكرى وفاتها الأولى..

وإلى أن يحين الوقت قد أتمكن من جمع معلومات إضافية عنها. سيساعدني عروة في هذا الأمر أظنّها كانت صديقة مقرّبة له.

***

"تحياتي عروة

أنوي كتابة شيء عن سوسن ملاك. أحتاج منك إلى بعض المعلومات عنها باعتبار أنّك صديق مقرّب لها كما لاحظت في لقائنا قبل أعوام في دبي. سبب اعتقالها مثلاً، وتاريخه. والمدّة التي أمضتها في المعتقل. أحتاج كذلك إلى بعض المعلومات الشخصية إذا أمكن. أمّا ما يتّصل بتجربتها الفنّية فسأبحث عنه في الإنترنت. عمّنا الجوجول لن يبخل علي. لا تشغل نفسك بهذا الجانب..

وطبعاً، لا ضرورة للاستعجال. أمامك ما تشاء من الوقت للإجابة..

مع خالص الودّ".

ثمّ تلقّيت الردّ بعد ساعات:

"مساء الخير صديقي

سوسن ملاك؟ لم أسمع بها من قبل. هل تقصد لقاءنا في الآيريش فيليدج؟ هذا اللقاء لم يكن موجوداً فيه سوى عددٍ محدودٍ من الأصدقاء. أذكرهم جيداً. مراد ووليد وفاطمة وأحمد والمرحومة فاتن وأنت. فقط".

أغلقُ الرسالة..

ماذا يعني؟ هل التبس علي الأمر؟ هل كان اللقاء في مناسبة أخرى؟ ثمّ ماذا يقصد بأنّه لم يسمع عنها من قبل؟!!

***

والجوجول.. أحمق.. أين اختفت سوسن ملاك؟

***

وهذا الإشعار الذي يظهر لي منبهاً إيّاي إلى وصول رسالة من الجريدة.. ما الذي يريدون؟

"تحية طيبة

نفيدكم بأننا لم نتلق بعد مقالكم الأسبوعي. يرجى إرساله في أقصى سرعة ممكنة...".

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

(٦)

الكتاب على الطاولة. أظنّ أنني عرفته. نعم. تشيخوف. أحد المجلّدات الأربعة من مؤلّفاته المختارة. ولكن هل لذلك أيّ أهمّيّة؟ هل يمكن أن يضيء قليلاً على القضيّة، ويساعدني في الكشف عن هويّة هذه الفتاة؟

حاولت أن أعيش دور المحقّق العبقريّ في الروايات البوليسيّة الكلاسيكيّة عندما يتمكّن من حلّ اللغز في النهاية عن طريق شيءٍ تافهٍ لا يحمل أيّ قيمة. شيء خارج كلّ التوقّعات. يظهر في خلفيّة الحدث بوصفه تفصيلاً عاديّاً لا يوحي بأنّ له دوراً أو أثراً. عقب سيجارة في الحديقة مثلاً، أو شظيّة زجاج لكأسٍ مكسورةٍ في المطبخ، أو أثر قدم موحلة على السجّادة.. أشياء من هذا القبيل..

تخيّلت نفسي بنظّارة سميكة على عينيّ، وعدسة مكبّرة في يدي، وغليون في زاوية فمي، ومن خلفي مساعدي الأبله يدوّن على ورقةٍ ملاحظاتي التي أمليها عليه..

اكتب..

تاريخ التقاط الصورة عام 1986 كما هو واضح على ظهرها. وفي هذه الفترة حقّاً اقتنى الضحيّة مجلّدات تشيخوف. وتؤكّد معلوماتنا أنّه تلقّاها هديّة. علينا الآن أن نعرف ما إذا كانت هذه الفتاة المشتبه بها هي التي أهدته إيّاها. سيفيدنا ذلك كثيراً في التحقيق. لا؟ ليست هي؟ جاءته هديّةٌ من صديق شيوعيّ كان يخطّط لتنسيبه إلى الحزب؟ طُعم أدبيّ في مصيدة سياسيّة؟ آه. الطريق المسدود ثانيةً. حسناً، لندع تشيخوف إذاً، ولنتأمّل هذا الوشم الصغير على ذراعها. الفتاة. نحتاج إلى أن نحدّد بالضبط ما هو. بعض الوشوم تخفي أسراراً رهيبة. قد يكون هو مفتاح الحلّ. أصغر الأشياء عادةً أخطرها..

وأضحك بصوت عالٍ. مشهد كوميديّ رائع. أفكّر أن أقترحه مستقبلاً على أحد أصدقائي ممّن يعملون في المسرح أو التلفزيون. لو كانت سوسن ملاك على قيد الحياة لاستشرتها..

حسناً.. بعيداً عن المزاح، فقد انتشيت وأنا أكتشف في نفسي هذه المهارة. دقّة الملاحظة. أيّ حدّة بصر هذه التي أملكها دون أن أدري؟! أحد المجلّدات الأربعة من مؤلّفات تشيخوف. لا أعلم كيف انتبهت إلى ذلك. لون الغلاف؟ ربّما..

تشيخوف، ومعه يتدفّق سيلٌ من الصور.. أيّام المخيّم. الشعراء والصحفيّون والمناضلون والعشّاق والسكارى والعاطلون عن العمل. الحوارات الصاخبة. الكتب الممنوعة التي نتأبّطها مغلّفةً بورق الجرائد. اللحى والفيلدات الخاكي وبناطيل الجينز المئسخة. السجائر المهرّبة الرخيصة. سينما النجوم. الأعلام. الشعارات. الجنائز الهتافات...

مزّة أخرى أضحك..

وأحمل الصورة ثانيةً في يدي.. تقع عيني على الفتاة. تديان رائعان! ماذا عن المؤخّرة؟

ثمّ أنتقل بعيني نحوي.. أنا مطوّقاً إيّاها بهذه الطريقة. كم أبدو سعيداً!

وأكاد أضحك أيضاً..

غير أنّ الضحكة تختنق. أغض بها. تنشب برقبتي علامة استفهام كبيرة. تتفرس فيها كخطاف وأنا أسأل:

- هل هو أنا؟

أرعبني ذلك. كيف لم يخطر هذا السؤال في ذهني منذ البداية؟

***

أنظر إلى الشاب في الصورة. معي حقّ. هنالك ما يدعو إلى الشك.. الشاربان مثلاً. لقد أطلقت شاربي في مرحلة تالية في عمري. ليس عام 1986 على الأقلّ. سمر - سيمو كما كنت أسمّيها نسبة إلى شراب السعال الشهير - كانت تشجّعني كثيراً على أن أكون بشاربين. كانت مهووسة بكمال الشناوي، وتعتقد أنني بالشاربين سأصبح شبيهاً به..

- لن تكون في جماله طبعاً.. لا أحد يمكن أن يكون في ربع جماله.. لكن من الممكن أن تشبهه قليلاً.. وهذا يكفيني..

تقول ضاحكة، فأغضب منها، وألكمها في كتفها..

نكايةً بكمال الشناوي لم أفعل. من هو لكي أتشبّه به؟!! وبقيت بلا شاربين إلى أن نسيتها. سيمو. والنسيان بطبيعة الحال لم يأتِ إلّا بعد سنوات. ليس عام 1986 بالتأكيد، ولا بعده بعامٍ أو حتّى عامين.

وبمناسبة كمال الشناوي فسيمو كانت تشبه مديحة كامل. والحقيقة أنّ إصراري على وجود ما هو مشترك بينهما لم يكن يروق لها. تقول إنّ مديحة كامل جنس خالص. وهي لا تحبّ أن تكون كذلك..

- سكس بدون إحساس.. بدون روح..

وتقترح يسرا بديلاً عنها..

- يسرا؟!! أنت جادّة؟!

- نعم.. لا أقصد الشكل.. أنتم الرجال عيونكم معلّقة على المؤخّرات والأثداء فقط.. لا ترون أبعد من ذلك..

- شخصياً تستهويني المؤخّرات والأثداء فعلاً.. أعترف بذلك.. ولكن هنالك أشياء أخرى.. أنتِ على سبيل المثال.. إضافةً إلى مؤخّرتكِ وثدييكِ الرائعين هنالك أصابعكِ.. فمكِ.. شرّتكِ.. وطريقتكِ البهلوانيّة الخارقة في ابتلاع خيوط السباغيتي..

ويجيء دورها لتلكمني في كتفي..

أفهمها. هي إذ تؤكّد على يسرا فلأنّ لقاءنا الأوّل كان على باب سينما الكندي في دمشق لحضور فيلم (حذوتة مصرية). رأيتها بصحبة أصدقاء مشتركين. عرّفوني إليها، وبعد الفيلم خرجنا جميعاً إلى أحد المقاهي. وهناك دار بيني وبينها حوار حول يسرا التي أدّت دور آمال زوجة يحيى.. من الطبيعي ألّا تسقط يسرا من ذاكرتها، كما لم تسقط من ذاكرتي أنا أيضاً.. أعترف بهذا براحة ضمير..

في مرحلة تالية أصبحت تتحدّث عن يسرا بوصفها أستاذةً لها. تقول:

- أنا أتعلّم منها.. ممثلة عبقرية..

أمّا كمال الشناوي فبقي المثل الجنسي الأعلى. لستُ غبياً ليخفى ذلك عليّ. هي نفسها ذكرت لي أنّها كانت تمارس العادة السرّية مستحضرةً إيّاه في خيالها. حتى بعد أن أصبحت صديقتي اعترفت أنّها حلمت به يضاجعها. روت لي الحلم بتفاصيله كلّها. حتى الألفاظ البذيئة التي تبادلاها نقلتها لي بالحرف. مجنونة!

***

شاربا كمال الشناوي إذاً. ليس في ذلك العام حتماً. يعزّز ظهورَ الشاربين فرضيّة أنّني لست أنا. أعني الشابّ في الصورة. لا. هو لا يعزّزها فقط، بل ينقلها من خانة الفرضيّات إلى خانة الحقائق الأكيدة..

وإذا تجاوزنا ذلك فهناك الندبة على جبيني. لا أراها. جبين صافٍ ومصقول. صحيح أنّ الصورة صغيرة، والإضاءة خافتة، لكنّ علامةً كهذه لا بدّ أن تظهر. ندبة بطول ثلاثة سنتيمترات تقريباً فوق الحاجب الأيمن. أسوأ الكاميرات يجب أن تلتقطها. ليس معقولاً أن تلتقط وشماً بحجم هذا الذي على ذراعها، وتخفي ندبة كبيرة بحجم هذه التي على جبيني!

كنتُ محقّاً إذاً في سؤالي. لستُ أنا.. مع أنّها لوحة موديلياني نفسها التي ما أزال أحتفظ بها. وكتاب تشيخوف. وشال الصوف. والبنّ نصف المحروق..

مهلاً..

هل تحدّثتُ عن ندبةٍ على جبيني؟ أيّ ندبة؟ لم تكن لي واحدة في يوم من الأيّام.. يبدو أنّني متعب حقّاً. جارتي اللعينة.. ما الذي تعنيه بكلّ هذا؟

(٧)

تعطل هاتفي النقال. لحسن الحظ أنّ لديّ خطاً أرضياً. أريد أن أخبر هؤلاء الأغبياء في الجريدة بأنّ المقالة أصبحت لديهم منذ أمس. لكنهم لا يردّون. هذه هي الرسالة الرابعة التي أتلقّاها منهم. يستعجلونني لكتابتها. إلى جهنم. إذا كان موظّفوهم كسالى إلى هذه الدرجة بحيث لا يتفقّدون الإيميلات الواردة إليهم، ولا يجيبون على المكالمات، أو إذا كان نظام المراسلات لديهم معطلاً ولا يعرفون كيف يصلحونه، فهذه مشكلتهم، وسأحفلهم المسؤولية إن لم تنشر المقالة في موعدها..

أمّا الآن فسأنام..

أحتاج إلى النوم. أظنّ أنني لم أنم منذ يومين. لا أشعر بالنعاس في الحقيقة، لكنّ رقبتي تؤلمني، وهنالك شياطين تعبث داخل جمجمتي. قليل من الاسترخاء قد يفيد. ثمّ إنّ النوم يمنحني فرصةً للتأمّل قليلاً، لعلّني أعثر على إجابات لبعض الأسئلة العالقة. ما تزال تشغلني تلك الرسائل التي تلقّيتها حول وفاة... ماذا كان اسمها؟ فاتن؟ فاتن أم سوسن؟ لا.. فاتن.. نعم.. سوسن هي الممثلة. سرطان الرئة..

لسببٍ ما، وبلا مقدّمات، تقفز إلى ذهني صورة جارتي. أتساءل:

- ما الذي جاء بها؟ هل تذكّرتني في شيء؟ لا بدّ من سبب.

لديّ في هذا الموضوع فرضيّة أعلم أنّها مضحكة، لكنّني لم أستطع التخلّص منها. أؤمن بها إيماناً يضايقني أحياناً، لكنّه عميق ومتجذّر بحيث اضطررت إلى الخضوع له في النهاية باعتبار ما يمنحني إيّاه من متعةٍ على الأقلّ.. إذا تذكّرتْ شخصاً دون مناسبة فهذا يعني أنّه كان يفكّر فيك في اللحظة نفسها.. وبناءً على فرضيّتي المضحكة فإنّ جارتي بلا شك كانت تستحضرني في ذهنها الآن على نحوٍ أو آخر. ما الذي كانت تفعله بي؟!

وأضيف:

- لعلّ اسمها فاتن أيضاً..

أرتاح لهذه الفكرة، خصوصاً أنّ الاسم يناسبها. بعض الأشخاص تناسبهم أسماء معيّنة، كما لو أنّهم خُلقوا ليحملوها، بغضّ النظر عن المعنى أو الدلالة. أتحدّث عن الإيقاع، أو التركيب. الرنين الذي يخلّفه الاسم. الهالة التي تشعّ منه. جارتي من هذا النوع تقريباً. فاتن. أرجّح أنّه اسمها أيضاً.

لكنّني أنتبه إلى أنّني أربط بينها وبين امرأة ميّتة، فيتملّكني إحساس بتأنيب الضمير.. أقول:

- رغم ما فعلته بي فأنا أتمنّى أن تظلّ بخير..

أبتسم..

وكنوعٍ من التسلية أحاول، وأنا مستلقٍ على فراشي، أن أرسم في خيالي سيناريو يروي قصّة حياة فاتن.

لا. ليست جارتي. أعني فاتن الأخرى التي كانوا يعزّون بها. تمرين عقلي صغير قد يعجّل بحالة الاسترخاء التي أبحث عنها. ألاحظ هنا أن الخطأ الذي أوصل رسائل التعزية بهذه المرأة إلى هاتفي لم يكن مؤذياً بالدرجة التي عشتها أوّل وهلة. أستطيع أن أستفيد منه في ابتكار حكاية. تنشيط الخيال. تسلية. مهدئ عصبي. مضاد اكتئاب. مثبط للقلق.. وإذا تفاءلت قليلاً فقد تساعد في النوم..

منذ يومين لم أنم..

سأبدأ من النهاية. من جارتي التي تحمل الاسم نفسه. أفكّر كذلك أن أجعلها شبيهةً بها.. تذكّرت.. جارتي مسيحية أيضاً. أرى صليباً ذهبياً صغيراً على عنقها دائماً. أظنّ أنه صليب. في المرّة القادمة سأحاول أن أدقّق النظر أكثر. المسألة ليست مهمة على أيّة حال، ولا تعني لي شيئاً. مجرّد ملاحظة عابرة. الأهمّ هو هذا الشبه الذي يروق لي أن أصطنعه بين المرأتين. جسد يميل إلى الامتلاء. قامة متوسطة. عينان واسعتان. وذائقة جيّدة في انتقاء الملابس والإكسسوارات..

وماذا بعد؟ مخطّطي المبدئي أن تتوقّف الصلة بينهما عند هذا الحدّ. المظهر الخارجي وحده. ثمّ تسير كلّ منهما في طريق. أكثر من ذلك يعني حكاية مكرّرة. مملّة..

لكنّ جارتي تستغلّ لحظة ضعفي التي استحضرتُ فيها صورتها، وتتطلّع نحو المزيد. تتمادى في سعيها نحو الاستحواذ على المشهد كلّه. إنّها تشوّش عليّ. الأغلب أنّها في هذا الوقت تعبث معي..

تثيرني هذه المرأة، ولكن ليس إلى درجة أن تكون كلّ النساء. ماذا تظنّ نفسها؟ هنالك أخريات في هذا العالم. ثمّ إنّه حلم. بأيّ حقّ تغتصب أحلامي؟! لا أحبّ هذا الشكل من التطفّل. فرض الذات. الهيمنة. ومحاولة ابتلاع كلّ شيء..

أشيح بيدي أمام وجهي كما لو أنني أزيحها من المشهد. أطرد آخر أثرٍ لها. أبقي على شكلها فقط. قامتها المتوسّطة، وعينيها، وصدرها البارز.

حسناً. هذا جيّد. جارتي الآن خارج الإطار. والصورة صافية. وفاتن كما هي. لا أحد يزاحمها على الدور المرسوم لها..

وأتابع..

ما الذي يلفت الانتباه أيضاً في شخصيّتها؟

إلى جانب صوتها، وضحكتها، ومشيتها، هنالك الحركة المميّزة لرأسها عندما تتكلّم. تحرّكه، ليس أفقيّاً على طريقة الهنود هنا في دبي. مجرّد اهتزازات بسيطة تدلّ على انفعالها. تشعر دائماً وأنت تنصت إليها أنّها تتكلّم بإيمان عميق. تقول الكلمة من القلب. كما أنّ لديها حرصاً مرضيّاً على أن تكون مقنعة. وما إن يراودها الإحساس بأنّ الفكرة لم تصل حتى تنقبض ملامح وجهها، وتبدو كما لو أنّها على وشك البكاء. وقد تبكي حقّاً..

رائع. يعجبني هذا. السيناريو يسير إلى الأمام على نحو مثيرٍ ومتقن..

يمكن أن أضيف هنا نقطة. سأزعم أنني على صلةٍ شخصيّة بها. سيساعدني ذلك على أن أطوّر السيناريو بشكل أسرع، وأن أملأ في الوقت نفسه الكثير من الفراغات فيه. أحبّ أن أكون مقرّباً منها. في صورة صديق. أو عشيق. أو جار. أو زميل عمل.. سنرى..

يمكن بدايةً أن أختار لها عملاً. لنقل إنّها موظّفة في مقسم الهاتف الآلي في شارع النصر في دمشق. أراها دائماً عندما أريد إجراء مكالمة مع أهلي في البوكمال. أعطيها بطاقتي الشخصيّة، وأنتظر ريثما تنادي عليّ في مكبّر الصوت، محدّدةً لي رقم الكابينة التي سأستعملها.

بداية معقولة لحكايةٍ مسلّية..

ثمّ حدث أن اختفت فجأة. حلّ محلّها في عملها رجل خمسينيّ سخيف كثيراً ما تجادلت وإيّاه بسبب بطئه في عمله، يمضي معظم وقته في التدخين وشرب الشاي والثرثرة مع زملائه..

نفترض بعد ذلك أنني رأيتها بعد أشهر تعبر الشارع بالقرب من جسر فيكتوريا. كانت المرّة الأولى التي تقع فيها عيناي على مؤخّرتها. في جميع المرّات السابقة كانت خلف مكتبها. لا أرى سوى رأسها وجزءٍ من صدرها. لا أذكر إن كانت تضع شيئاً في عنقها أم لا.. ليس صليباً على الأرجح.. أخمّن، ولا أؤكّد..

مؤخّرتها كانت محشورة داخل بنطال جينز بطريقة تظهرها مكوّرة، وملينة، وواضحة بجميع تفاصيلها. من موقعي على مسافة بضعة أمتار بعيداً عنها انتبهت إلى ضفّتي المؤخّرة وهما ترتجّان أثناء المشي، وتذكّرت ملاحظة سيمو حول المؤخّرات والأثداء، فابتسمت. قلت:

- مؤخّرة جميلة حقّاً..

وأضفت:

- لكن ليس هذا هو المهمّ..

وكنت أعني ذلك بكلّ صدق. لم تكن جاذبيّة مؤخّرتها هي ما فكّرت فيه. في ذلك اليوم على الأقلّ..

وكما هو متوقّع، فقد تبعتها. وصلنا إلى الزاوية التي تحتلّها مقهى الهافانا عندما أسرعتُ الخطى، مضيّقاً المسافة بيني وبينها، حتّى أصبحتُ خلفها تماماً. وبرفق شديد وحذر وخوف وتردّد (كلّ ذلك دفعةً واحدة) نقرتُ على كتفها من الخلف قائلاً:

- عفواً.. إذا سمحتِ..

توقّفتُ عن المشي واستدارتْ نحوي. لحظة صمت قصيرة. جيّد. هذا مطمئن. لقد عرفتني..

- سلامة؟!

سلامة ليس اسمي طبعاً. أستعير هذا الاسم من الرسائل التي وصلت هاتفي تعزّي بها. كانوا يسقون زوجها

سلامة. أذكر ذلك جيداً..

- كيفك؟

- تمام.. وأنتِ؟

- بخير..

كانت تلك هي الخطوة الأولى. الخطوة الأسهل. قمت بكلّ ذلك على نحوٍ غاية في السلاسة والانسيابية. ولكن ماذا بعد؟ ماذا يمكن أن أقول لها أيضاً؟ بم سأفسر استيقافي لها هكذا في وسط الشارع؟ لا بدّ أن أجد ذريعة مناسبة..

- مررت أكثر من مرّة، ولم أجدكِ..

- تقصد مقسم النصر؟

- نعم.. هل تركتِ العمل؟

- لم يعد يناسبني. لا الراتب، ولا الوقت..

ابتلعتُ ريقي. لم يعد لديّ ما أضيفه..

- طيب.. هذا كلّ شيء.. أتمنى لكِ الخير..

وهممت بالانصراف، لكنها قالت:

- اسمع.. لديّ الرغبة في فنجان قهوة.. الهافانا هنا غالية.. ما رأيك في مقهى الكمال هناك؟

***

حسناً. هل عليّ أن أختلق قصّة حبّ بينهما، أم أتركها علاقةً مفتوحة؟ أعني علاقة تتخلّلها بعض المشاعر، ولكن دون أن يقيّدها اعترافٌ بحبّ؟

أجد الخيار الثاني مناسباً. ولقليلٍ من الإثارة يمكن القول إنّهما ظلّا صديقين، لكنّ ذلك لم يحل دون لحظات خاصّة كانا يعيشانها بين الحين والآخر. مداعبات جريئة مثلاً. قبلات. ثمّ مارسا الجنس. ليس مرّةً واحدة، بل عدّة مرّات.. أوّل مرّة كانت في ليلة رأس السنة. لا يحتفل عادةً بهذه المناسبة، لكنّه في تلك الليلة عرض عليها أن يكونا سويّةً بعد أن ذكرتْ أمامه أنّها لا تجد أحداً تحتفل معه. وبطريقةٍ ما أخذ الاحتفال مساراً لم يكن مخطّطاً له أصلاً..

ثمّ تكرّر ذلك. كانا يفعلانه كلّما زارته في منزله في المخيّم. ومع هذا لم يقولا يوماً إنّه حبّ. استبعدا كلّ

ما له صلة بهذا الإحساس تماماً، وقالا إنهما يمارسان الجنس كصديقين فقط! صديقان يتسكّعان، يجلسان في مقهى، يتحدّثان في العدالة الاجتماعية، في تجديد الخطاب الديني، في قضية فلسطين والحرب الأهلية اللبنانية، موديلياني، يطبخان السباغيتي، يمسحان الأرض، يتشاجران.. وعندما يكون الوقت مناسباً، ويشعران بالرغبة، يمارسان الجنس.. ثم يواصلان الشجار ويخرجان إلى المقهى، ويتسكّعان، ويأكلان السباغيتي..

- ماذا في ذلك؟

هكذا كانا يقولان عندما يجدان نفسيهما أمام سؤالٍ من نوع:

- ما هذا الذي يجمعنا؟

مهمٌ جداً هذا الجانب في علاقتهما الذي استبعدا فيه خيار الحبّ، لأنّه يفسّر حالة التأجج في المشاعر التي عاشاها فيما بعد. كما لو أنهما كانا في تلك المرحلة يدركان ضرورة عدم التفريط بطاقة الحبّ، واستنزافها، وتبديدها. كانا يدّخرانها لأوقات مقبلة. رصيد كان ينمو شيئاً فشيئاً. على مهل. وبهدوء. وصمت..

(٨)

كنت على وشك الاستغراق في النوم عندما سمعت قرعاتٍ خفيفةً على باب الشقة. نظرت إلى الساعة. الثانية والنصف فجراً. لا شك أنّ الزائر وضع ضمن حساباته أنني قد أكون نائماً، ولذلك لم يستعمل الجرس. هذا لطفٌ منه بكلّ تأكيد. لكن ما الذي يريده في هذا الوقت؟

متثاقلاً، وغاضباً تقريباً، وقلقاً كذلك، نهضت من فراشي..

كانت جارتي!!

بيجامة من قماش أزرق ناعم له لمعة الحرير. قد تكون من الساتان. لا أجزم بذلك بحكم ضآلة خبرتي في الأقمشة وأنواعها، رغم أنّ والدي كان واحداً من أكبر تجّار القماش في البوكمال. بنطال فضفاض نوعاً ما، وقميص بأزرار كبيرة بحجم نصف الليرة تقريباً. وبنظرة خاطفة عرفت أنها لا ترتدي حمالة صدر. ومع ذلك فقد كان ثدياها مشدودين كما بدَوا لي. لهما شكل هرمين تقريباً. ملاحظة لم تثرني بقدر ما أشبعت غروري، وأشعرتني بنوع من الرضا الداخلي بعد أن تأكّدت تقديراتي السابقة حول جمال ثدييها.

تأمّلتها بعينين ملؤهما الدهشة، مع قليل من الاحتجاج لم أتمكّن من مقاومته. لم أتكلّم. نظراتي كانت كفيلة بإيصال الرسالة. لقد أدركتْ بالفعل أنني تعرّضتُ لإزعاجٍ من قبلها، لذلك كانت مرتبكةً وهي تلقي التحية:

- مساء الخير..

تملّكتني الرغبة في الضحك. ألا يمكن أن يكون بيني وبين هذه المرأة ما يتجاوز هذه العبارة؟ نرددها منذ أشهر، كأننا لا نعرف سواها: مساء الخير. صباح الخير. مرحباً.. تكرار مملّ بصراحة. لكن من يدري. قد تكون الآن، في هذه اللحظات، على وشك أن نبدأ فصلاً جديداً من الحكاية. صحيح أنّ التوقيت مزعج. الثانية والنصف فجراً. لكن لا بأس.. لنرَ..

أجبت بنبرة فيها تساؤل مضمر:

- مساء الخير..

- آسفة.. الوقت متأخر جداً. أعلم. لكنني بحاجة إليك..

- تفضّلي..

- هل أدخل؟

فاجأني سؤالها. والواقع أنني لم أكن أعني بالضبط أن تتفضّل بالدخول. كان ذلك سيبدو تجاوزاً لحدود الجرأة باتّجاه الوقاحة. أن تدعو امرأةٌ للدخول إلى منزلك لمجرّد أنها وقفت ببابك تطلب منك خدمةً ما. أليس هذا تحرّشاً؟ كانت دعوتي لها أن تتكلّم فقط لأرى ماذا تريد. لكنها بجوابها هذا لم تترك لي أيّ خيار. هو طلب

مباشر للدخول وإن جاء بصيغة سؤال. وكان عليّ أن أستجيب طالما كانت هذه رغبتها. ليس من اللائق أن أرفض..

أفسحت لها الطريق، ولكن في قدرٍ معتدلٍ من الترحيب. ليس فتوراً كي لا أجرح إحساسها، وتظنّ أنّ استجابتي لطلبها كانت بدافع الإحراج فقط؛ وليس حماساً كي لا أبدو في موقف المتهافت الذي سرعان ما يسيل لعابه أمام امرأة، وإن كانت مثيرةً إلى هذا الحدّ.. مثلها.. خصوصاً بجسدها منطلقاً وحرّاً خلف غلالةٍ من الساتان الأزرق الناعم.. بيجامة جميلة وأنيقة..

قلت:

- طبعاً.. تفضّلي..

أحضرتْ علبتي بيرة. لم أستشرها في ذلك. ولا أدري لماذا. ربما لأنّني افترضت أنّ الموقف يقتضي مشروباً كالبيرة يساعد قليلاً على فك عُقَد اللسان في حال وُجِدت. قدّمتْ لها إحداها فتناولتها..

- ممتاز.. أنت تعرف كيف تُكرِم ضيوفك..

قالتها مبتسمة، ثمّ تجرّعت نصفها تقريباً دفعةً واحدة. خيّط من السائل تسرّب من زاوية فمها اليسرى، وانحدر باتّجاه رقبتها. وضعت العلبة، ومسحت السائل بظاهر كفّها وهي تبتسم ثانية، كما لو أنّها تعتذر عن شراهتها غير المتوقّعة. استغربتُ أن تستخدم يدها، مع أنّ علبة المناديل كانت أمامها على الطاولة..

انتبهتُ إلى أنّها كانت تحمل مغلّفاً صغيراً. راودني إحساس أنّ هذا المغلّف بالذات وراء زيارتها لي. لكنّني لم أتكلّم. لستُ مستعجلاً. انتظرتُ إلى أن فتحته، وأخرجتُ منه شيئاً، ثمّ ناولتني إيّاه:

- انظر..

تماماً.. لا شيء مفاجئاً. كانت صورةً بالفعل. السرير. ومودِيلياني. وشال الصوف. وحقالة الصدر. وتشيخوف. والبنّ نصف المحروق...!!

- ما رأيك؟

- في أيّ شيء؟

- هل تعرف هذه الفتاة؟

قرّبتُ الصورة من عينيّ، مضيّقاً إيّاهما..

- أهي أنت؟

- بالضبط..

- بصراحة.. مغرية. مثيرة. متى كانت هذه الصورة؟

لم تكترث لسؤالي. تجاهلته، وقالت:

- ماذا عن الشابّ إلى جانبي؟

وكرّرت الحركة التمثيلية نفسها، تضييق العينين وتقريب الصورة منهما، ثمّ قلت:

- لا أعرفه.. من هو؟

- متأكّد؟

ومع أنني لم أكن في حاجة إلى ذلك لأنّ الأمر واضح ومحسوم، فقد أعدت تقريب الصورة إلى عينيّ مرّة ثالثة، ثمّ أجبت بلهجة الواثق الذي يعني ما يقول تماماً:

- نعم.. لا أعرفه..

- غريب!! مع أنّه يشبهك..

وابتسمتْ. كنت أعلم أنّها ابتسامة كاذبة، والمؤكّد أنّها لاحظت ذلك. ابتسامة لا تتجاوز حدود الشفتين، في حين بقيت ملامح وجهي الأخرى جامدة. متصلّبة. كما لو أنّ وجهي من خشب. أو زجاج. أو نحاس. أو مطّاط.. أو أيّ شيء باستثناء اللحم والدم..

- لا.. هنالك فرق كبير بيننا.. هذا واضح..

وأردفتْ:

- وبافتراض أنّه يشبهني، ما الذي يعنيه ذلك؟ هنالك ملايين من الأشخاص في هذا العالم يشبهون بعضهم.

وأضفتْ متصنّعاً نوعاً من الممازحة:

- أنا لي على الأقلّ أربعون شبيهاً.. وأنتِ كذلك..

- هذا الشابّ ليس أنت.. متأكّد؟

- طبعاً.. وأستغرب كيف خطر في ذهنك أنّه أنا!!

سحبت الصورة من يدي، ونهضت..

- أنا آسفة.. أزعجتك.. كنت أتوهّم فقط..

(٩)

سرطان الرئة. يموتون كثيراً بهذا المرض في هذه الأيام. كما يموتون جوعاً. وكما يموتون قنصاً. وكما يموتون اختناقاً. وحرقاً. وبالسكاكين المثلومة. وبالسياط. وبالسارين. والذبحات الصدرية. والحزن. والوحدة. وفي الخنادق. وعلى الأسرة في المشافي. وتحت عجلات السيارات. وفي المحيطات. وعلى المشانق. وعند المعابر.. يموتون دائماً، وكثيراً.. فرادى، وجماعات..

ليس جديداً على الموت إذاً، ولكن ليس بهذا اللؤم أبداً. ليس بهذه الوحشية. أن يهجم غدراً. أن يقتال الشخص عبر رئته بالذات. يقضمها شيئاً فشيئاً، في منتهى البرود، مسبباً له الاختناق. يجعلها عاجزةً عن تصفية هذا الهواء المليء بالقانورات، فيتسقم دمه. تتحوّل شرايينه وأوردته إلى مجارٍ للدم الفاسد..

ما معنى أن تموت امرأة في سنّ الخمسين بسرطان الرئة؟ لمجرّد أنها كانت تدخّن؟ هذا مضحك وسخيف!!

سوسن ملّاك كانت مدخّنة فعلاً. علبتان في اليوم، كما سمعتُها تقول في ذلك اللقاء الوحيد جواباً على تعليق أحدنا حول سجائرها. علبتا سجائر. ليس قليلاً. صحيح. ولكن لماذا توقّف الموت عند النيكوتين والقطران وحدهما، وتجاهل عذوبة صوتها مثلاً؟

كان لقاءً وحيداً. لكنني لا أنسى ضحكتها. كانت الضحكة تخرج منها كما لو أنّ حبال حنجرتها مغلّفة بالسكّر. تمرّ عليها، وتلتقط حلاوتها كاملة.. لماذا لم تشفع لها هذه الضحكة لديه وهو يتسلّل نحو رئتها ليزرع فيها السرطان؟

لماذا يعاقبها على النيكوتين والقطران، ولا يكافئها على أناقتها مثلاً؟ ألا يستحق أمرٌ كهذا مكافأةً ما؟ بضع سنوات إضافية في هذه الحياة؟

عامان وثلاثة أشهر في المعتقل، وعندما خرجتْ كانت إحدى عينيها قد ابيضّت. كان يمكن للموت أن يسامحها على النيكوتين والقطران مقابل عينها. ماذا في ذلك؟ صفقةٌ إن لم تكن رابحةً فهي عادلةٌ حتماً..

***

"تحياتي عروة..

سوسن ملّاك!! كيف لا تعرفها؟! أأنت جادّ فيما تقول؟

على أيّة حال بإمكانك تجاهل الموضوع تماماً، لأنني صرفت النظر عن فكرة الكتابة عنها..

دمت بخير".

ولم يتأخّر الردّ كثيراً:

"لم أنت مصرّ على أنني أعرفها؟ وإذا كنت أعرفها فلماذا أخفي الأمر عنك؟

لقد أخبرتك من قبل بأسماء الذين حضروا لقاءنا ذاك. هؤلاء فقط. أمّا اللقاءات الأخرى فلم تحضرها هذه السيدة إطلاقاً. أؤكد لك".

ثم تبعتها رسالة أخرى:

"على فكرة، سأكون في دبي الأسبوع المقبل. أتمنى أن أراك".

***

ولكن..

لِمَ لَمْ أنسَ ضحكتها؟ لماذا ظلّت عالقةً في ذاكرتي طيلة هذا الوقت؟ لقد ضحكتُ في ذلك اللقاء. نعم، مرّتين.. مرّةً عندما قالت إنّني صاحب ألذّ قبلات في العالم! امرأة مجنونة. ومرّةً عندما قفزت حبّة الزيتون إلى الأرض وأنا أحاول التقاطها بالشوكة في طبقي..

- كلّ هذه السنوات ولم تتعلّم؟

قالت معلّقةً على حركتي الخائبة..

مجنونة حقّاً.. من أخبرها أنّني لا أجيد استخدام الشوكة؟! خصوصاً مع حبّات الزيتون، وخيوط السباغيتي؟

غير أنّني أعذرها على جنونها. يخرج المعتقلون عادةً بعقولٍ مشوّشةٍ كعقلها. تمرّ بهم أوقات تختلط فيها عليهم الأحداث والأمكنة والأزمنة. ولا يميّزون بين الأشخاص. أنا نفسي عانيت من هذه الحالة رغم أنّني لم أقض عامين وثلاثة أشهر مثلها. كانت مئة أشهر فقط. وعندما خرجت – حاملاً يدي المعطوبة طبعاً - وجدت صعوبةً في تذكّر الكثير من الأشياء..

نسيتُ اسم الطبيب الذي تلقّى أوامر بأن يعالج لي يدي بطريقة خاطئة. أرادوا أن تظلّ معطوبةً إلى الأبد. وللدقّة فأنا لا أعرف اسمه، لأنّهم لم يذكروه أمامي إطلاقاً. ما نسيته هو وجهه. أذكر لون عينيه فقط. كانتا محمرّتين. ربّما كانت درجةُ الاحمرار الأشدّ التي أراها في حياتي. حتّى الدم لم يكن هكذا..

ونسيتُ مرّةً اسم الفاكهة المفضّلة لديّ. الرمّان. سألتني سيمو، فاضطررت إلى الكذب حينها لمداراة صدمتي قائلاً إنّه الدرّاق، مع أنّني لا أستسيغه. قلتُها وأنا أمرّر أصابع يدي السليمة على جلدها العاري قريباً من السرّة، حيث الزغب ناعمٌ وشفّاف، ولكن يمكن الإحساس به..

وفي حادثةٍ أخرى نسيت اسم موديلياني الذي أملك لوحةً استنسخها صديقٌ لي عن أحد أعماله. ونسيت اسم الصديق. ونسيت أين وضعت اللوحة..

حربٌ يومية مع النسيان.. عناوين بيوت. وجوه. مواعيد. أحداث. أرقام...

مرّ بي مثل هذا كثيراً. ولذلك أفهم سوسن ملّاك. ربّما لهذا السبب أجدني متعاطفاً معها.. تظنّ أنّنا كنّا نعرف بعضنا في مرحلةٍ ما. مجنونة! ونتبادل القبلات. وأفشل في التقاط حبّات الزيتون بالشوكة أمامها. والمضاجعات. وإعداد السباغيتي. والشجارات. وأضاجعها ثانيةً. والضحك. والخوف. والساتان. وشراب السعال. ومقهى الهافانا. ومن يدري ماذا أيضاً!

أشفق على هؤلاء الذين يقعون ضحايا أوهام تعشّش في عقولهم!!

***

سوسن ملّاك ليست أقوى من غيرها. بل إنّ الأمر لا علاقة له بالقوة. شقيق عروة المدني كان ملاكماً. وخلال أربعين يوماً أمضاها في المعتقل تحوّل إلى شبح. أخرجوه حيّاً. وكان يتنفّس، ويتكلّم، ويستطيع الوقوف على رجليه، ويطلب ماءً أو عصيراً.. لكنّه سقط بعد يومين فقط.. مات.. خسر المنازلة الأخيرة.. بالضربة القاضية..

أفهم سوسن ملّاك إذاً عندما تخذلها روحها، وتتنقّل بها من أحضان شخص إلى آخر.

قبلات وزيتون وسباغيتي؟

مجنونة..

(١٠)

لا أحبّ الشعوذات. أنظر إلى الحياة بجديّةٍ مطلقة. أرى أنّها ليست للّعب. ليست للتهريج..

لهذا السبب فأنا لا أخفي انزعاجي من جارتي. امرأة غريبة! من أين أتتها هذه الجرأة كلّها لاقتحام حياتي؟

لا.. لا أتحدّث عن تلك الليلة التي جاءت تحمل فيها صورتها مع ذلك الشاب. هذه الحادثة اتّضح فيما بعد أنّها كانت مجرّد حلم. صحيح أنّه بدا لي حقيقياً وواقعياً جداً حينها، إلى درجة أنّني صدّقته، وكان ذلك وراء اتّخاذي قراراً حازماً بمقاطعة تلك المرأة نهائياً خوفاً ممّا قد تلحقه بي من أذى؛ لكنّني عندما استيقظت صباح اليوم التالي، وتفقّدت الصالة حيث كنّا جالسين لم أجد أيّ أثر يدلّ على أنّ الزيارة حدثت فعلاً.. علب البيرة لا وجود لها. مؤونتي منها انتهت أصلاً منذ أيّام. والمناديل. بل إنّ الكرسيّ كان من طرازٍ مختلف. ليس هو نفسه الذي كانت تجلس عليه. والطاولة أيضاً من الخشب، وليست من الزجاج. حتّى طلاء الجدران كان من لونٍ آخر..

لا أتحدّث عن هذا إذاً، بل عن الحلم نفسه / فكرة أن أحلم بها.. أزعجني ذلك كثيراً. تفعلها للمرّة الثانية، أو الثالثة. تتسلّل إلى أحلامي. ما الحيلة الشيطانيّة التي تلجأ إليها؟!

هذا ما عنيته بالشعوذة..

المشكلة أنّني لا أستطيع أن أحاسبها. ماذا أقول لها؟ أنت متطفّلة؟ لا أريدك في أحلامي؟ اخرجي من حياتي؟ ستسخر منّي حتماً. ستظنّ أنّني مجنون..

- يا له من مجنون!!

أو قد تتّهمني بأنّني أتحرّش بها..

- رجل سافل.. وسخ..

ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أتجاهل الموضوع كلّياً. ثمّ إنّني ما زلت أذكر تلك الخدعة السخيفة التي قامت بها عندما أوهمتني أنّ جبيني يرشح دماً. لا فكرة لديّ عن الطريقة التي استخدمتها، لكنّها لعبة رخيصة تافهة. لن أسامحها أبداً. ألم أقل إنّها شعوذة؟

بكلّ الأحوال هي لا تعنيني كثيراً. أو لا تعنيني بالمطلق. جارة فقط، ونلتقي عند المصعد أحياناً. احتراماً لهذه النقطة وحدها لن أبالغ في ردود أفعالي بحيث أقطع كلّ الحبال بيننا. سأبقي على التحيّة التي اعتدنا عليها: مساء الخير، صباح الخير، مرحباً.. وأكتفي بذلك. سيستمرّ هذا إلى النهاية. إنّه قراري. أنا الذي يرسم الحدود، وليس عليها إلّا أن تستجيب وتلتزم.

ما عدا ذلك فلن أفعل شيئاً. وألّا أفعل شيئاً هو بحدّ ذاته فعلٌ يجب أن تفهم معناه. هذا إذا كانت ذكيّة ولديها حدّ أدنى من الإحساس. ستلتقط الرسالة حتماً، وستعلم أنّ ما قامت به كان طعنةً في الظهر. حركة دنيئة غادرة استغلّت فيها لحظة ضعف طارئة مررتُ بها.

وبكلّ الأحوال فإنه أمرٌ جيد أنها كشفت عن نواياها مبكراً، لأنني سأظلّ من الآن فصاعداً محتاطاً لكلّ الاحتمالات. لن يتكرّر الحادث إطلاقاً. لن أعطيها الفرصة لتسخر مني. عليها أن تفهم..

***

آه. ها هي. عند المصعد. المكان المعتاد الذي لا يتغير أبداً. لم لا نلتقي في مدخل البناية مثلاً؟ أو عند البقال في الأسفل؟ أو على ناصية الشارع؟! لماذا المصعد فقط؟

- صباح الخير.

قلت، فردّت:

- صباح الخير..

بادرة إيجابية منها أنها اكتفت بذلك. لم تضف شيئاً. هل وصلتها الرسالة؟

يلفت انتباهي وشمٌ أسفل عنقها. تنين. يبدو أنها نقشته حديثاً. لم أره من قبل. هل أسألها عنه؟

طبعاً لا.. مع أنّ لديّ أسباباً وجيهة تبرّر لي خطوة جريئة من هذا النوع. الفتاة في الصورة، تمتلك وشماً أيضاً. كان تنيناً. ربما. سأتأكد من ذلك لاحقاً. تنين أم أفعى؟ أفعى. نعم. هنالك فرق. كما أنه وشمٌ على الذراع لا العنق. جيد أنني تذكّرت في الوقت المناسب. قبل أن أتورّط في سؤال قد يجرّ إلى أحاديث أنا في غنى عنها..

- أيعجبك الوشم؟

- هل تعيشين وحدكِ؟

- هل استمعت إلى نشرة الأخبار؟

- من أين اشتريتِ هذا الثوب؟

- ماذا تعمل؟

وثرثرات لن تنتهي.. لا.. لا أريد..

سيمو كان لديها وشمٌ هي الأخرى. ولكن في مكان مختلف. سرّيّ وعميق وخاص. عند العانة. مجنونة. عندما ينمو الشعر يغطيه، فلا يظهر. وشمٌ صغير نقشته في بيروت. لم يكن تنيناً ولا أفعى. كان مفتاح (صول) الموسيقي. سبق أن أهديتها في مناسبة ما خاتماً على شكل هذا الرمز، وكانت مهووسة به، بسبب فرادته. خاتم رخيص في الحقيقة، لكنّ تصميمه ليس شائعاً، وهي بطبيعتها تنفر من المبتذل الذي يكثر تداوله..

- أتعلم.. سيكون رائعاً لو وشمت قضيبك أيضاً..

مجنونة!

وتضيف:

- أعرف مكاناً في بيروت، يقومون بهذا. امرأة للأسف. وجميلة. لكن لا بأس. لن يحدث شيء طالما أن العمل سيتم بحضوري وتحت إشرافي..

مجنونة حقاً..

وتتابع:

- صدّقني.. سيكون أجمل.. وأشهى..

ونضحك. ضحكنا كما لم نفعل من قبل. ونسينا حينها وجبة السباغيتي على النار. لم ينتشلنا من دوّامة الضحك والعري سوى الدخان قادماً من المطبخ..

***

هل لدى جارتي وشمٌ في مكانٍ آخر غير العنق؟ أتوقع. هنالك ما يوحي بأنها تحب الوشوم. وبافتراض أنّه عند العانة أيضاً. الأمر الذي أرجّحه، فلن يكون مفتاح (صول). هكذا يخيّل لي. قد يكون حرفاً. الحرف الأوّل من اسمها. (F). مثلاً. باللاتيني. مع زخرفة بسيطة. أو الحرف الأوّل من اسم الرجل الذي تحبه. مثلاً. أو قد يكون دولفيناً. أو قوس كيوبيد. وإذا أردت أن أستسلم لخيالاتي الآن، وأدخل في التفاصيل، فيمكنني أن أتحدث عن وشمٍ على شكل كوكب زحل. مثلاً. شخصياً أحبّ زحل. وهي امرأة تبدو لي جذّابةً بحيث تستحقّ أن تعيش على كوكب جميل مثله. بحلقات ملوّنة. وبعيداً عن مصائبنا..

***

ابتسمَتْ..

جهاز الاستشعار لديّ يبعث برسالة تحذير. انتبه. هنالك ما يدعو إلى القلق. نيّة لتجاوز الحدود مرّة أخرى. ابتسامة غير بريئة. أفكّر فيما سيلي ذلك. غير أنّني سرعان ما أوجّه الموضوع نحو احتمالٍ آخر. حسن الظنّ مفيدٌ أحياناً، وضروريّ للنأي بالنفس عن المشاكل. لشراء قليلٍ من الراحة.. أقول لنفسي إنّها ابتسامة عابرة. عاديّة كأيّ ابتسامة أخرى. لا تضمر أيّة نوايا عدوانيّة. الأغلب أنّها لاحظت أنّ وشمها الجديد قد لفت انتباهي، وأرادت بهذه الابتسامة أن تشكرني. هذا كلّ ما في الأمر. وأنا لا أرى فيه أيّ نوعٍ من أنواع التجاوز. جميع النساء يشعرن بالامتنان تجاه الرجل الذي يلاحظ. لا سيما تلك التفاصيل الصغيرة. الخاصّة. والحميمة..

وأبتسم لها أيضاً..

(١١)

لِمَ أشعر بالغضب؟! سواي كان سيسميه حزناً، باعتبار كلّ هذه الطبقات الكثيفة من الضباب التي تغرق فيها المدينة. العدام الظلال. الصمت المطبق. الحالة الشبحية حيث يذوب كلّ شيء في كلّ شيء. خليط غرائبي من الروائح عالق في الهواء. لا يتحرّك. يجمع بين الحموضة والمرارة والقتامة، إلى جانب القليل الذي يكاد لا يلحظ من الرهافة الغامضة. لعلّها رهافة الزجاج المكسّر في الطرقات السريعة مع تواتر الأخبار عن حوادث مريعة هنا أو هناك. لزوجة. دبق..

صباح ثقيل الوطأة.. حزين عن جدارة..

لكنني لست كذلك.. أنا غاضب فقط.. لا أعرف ممّ بالضبط..

أفكّر في أولئك الحمقى في الجريدة الذين أرسلوا لي يخبرونني أنّ ما تلقّوه منّي لا يصلح للنشر. لا أفهم ما الذي لا يعجبهم في موديلياني؟ انتحاره بالسلّ؟ نساؤه المريضات؟ الوحيدات؟ ذوات الأعين الصغيرة المطفأة؟ الشفاه الضيّقة المزمومة المغلقة أبداً على كلماتٍ في الداخل لا يعرف أحد ما هي؟ أعناقهنّ الطويلة المشرئبّة التي يمكن أن تنكسر في أيّ لحظة فتسقط رؤوسهنّ عنها؟ لا يعجبهم ذلك؟ أغبياء، متبلّدون، ليس لديهم أدنى إحساس بالجمال..

أفكّر كذلك في هاتفي المعطّل.. لا شكّ أنّه امتلأ الآن بمئاتٍ من رسائل التعزية بتلك المرأة. فاتن. الموظّفة السابقة في مقسم الهاتف الآلي في شارع النصر. التي أحببتها في نهاية المطاف. نحرص دائماً على أن نستقبل الأعوام الجديدة عاريين. نستعين على برودة الجوّ بالنبيذ. نعدّ بعض الأطباق الخفيفة. ونشعل شموعاً. ونغفي. ونتبادل بعض النكات.. وعندما تلتقي عقارب الساعة معلنةً الثانية عشرة نكون مستعدّين تماماً لذلك اللقاء المجنون الذي تورّطنا فيه أوّل مرة. نعيده بحذافيره. اللقاء الذي لم ننجُ من آثاره إلى اليوم..

لديّ فضول كبير لمعرفة الأسباب التي جعلتنا نفترق. لكنّ الفضول الأكبر أن أعرف الطريقة التي ماتت بها. يخيّل لي أنّها فعلتها وحيدةً في أحد المنافي. معظم الذين أعرفهم يموتون بهذه الطريقة الآن. هل كان سرطان الرئة أيضاً؟ إذا افترضنا أنّها تشبه جارتي حقاً، فقد يكون موتها سقوطاً من الطابق الحادي والعشرين، كما فعلتها جيني قبلها. جارتي من نوع النساء اللواتي يُضبَن بالانهيار سريعاً، ولأدنى سبب، رغم مظاهر الصلابة التي تبدو عليهنّ. هؤلاء يواجهن العالم بقبضات حديديّة دائماً، لكنّهنّ عندما ينفردن بأنفسهنّ يبكين طويلاً، وبحرارة..

أفكّر في جارتي.. والدم على جبيني..

أفكّر في سوسن ملّاك.. وسجائرها.. وعينها البيضاء..

أفكّر في عروة المدني.. وموديلياني.. وجيني..

أفكّر في سيمو.. شراب السعال الشهير.. والوشم على عانتها..

أفكّر في تجارة أبي التي تعرّضت إلى ضربةٍ أطاحت به أرضاً. شريكه، وهو خالي، استولى على كلّ شيء بطريقة دنيئة..

أفكّر في خالي الذي مات مفلساً أيضاً بعد أن استولت داعش فيما بعد على ما استولى هو عليه..

أفكّر في يدي المعطوبة.. أصطحبها كعضوٍ زائد فائض غريب عنّي.. يد ملتوية حقلوني إيّاها مع علمهم أنّها لن تنفعني في شيء..

أفكّر في الزنزانة.. والسياط.. واسمي في نشرة الأخبار إرهابياً متطرّفاً يكره النساء، ويسقيهنّ حريماً وإماء وجواري..!

أفكّر في الحقيبة الضخمة التي تحوّلت إلى ما يشبه حاوية القمامة أو المقبرة التي ضاقت بالجثث فلفظت معظمها خارجاً..

أفكّر كثيراً.. ولا أرى في ذلك كلّه ما يستوجب الغضب.. أشياء تافهة يفترض أن أتعامل معها بمنتهى الاستخفاف. لا أعطيها أيّ أهمّيّة. وفي أدنى الحالات يمكن أن أسمح لها بإثارة القليل من الحزن فقط. كما هو حال هذا الضباب. أنشزبه بهدوء وصمت. ينحلّ في داخلي شيئاً فشيئاً، ودون ضجيج.. لكنّها الآن تستفزّني. لديّ طاقة غضبٍ لا أدري أين وكيف يمكن أن أصرفها..

***

جيّد أنّني ذكرت الحقيبة الآن. يجب أن أتخلّص منها. منذ زمن بعيد وأنا أخطّط لهذا. وأظنّ أن الوقت قد حان للشروع به..

توقّعت، وأنا أنقّب في محتوياتها لاستخلاص ما هو مهمّ ويمكن أن أحتاج إليه مستقبلاً، أن أجد صورةً أخرى لهما. أنا الشابّ بشاربي كمال الشناوي، وهي الفتاة بالظلّ البنّيّ الخفيف لحلمتيها من خلف القميص. البنّ نصف المحمّص..

لم أعثر على شيء للأسف. بل إنّ الصورة القديمة نفسها اختفت.. أمس انتبهت إلى ذلك.. لا أدري أين وضعتها. أقلّب الكتب لعلّي دسستها بين صفحات أحدها. أمرّ على الرفوف. أفتح الأدراج. أنظر تحت الكراسي. أتحسّس جيوب ملابسي. أبعثر محتويات سلال المهملات الموزّعة في أرجاء المنزل، في الصالة وغرفة النوم والمطبخ والحمّام..

تعبت، فقرّرت أن أهمل الموضوع..

- سأجدها فيما بعد..

قلت لنفسي، ونمت.. كنت متعباً. لم أنم منذ يومين..

الآن، وقد استعدت قليلاً من حيويّتي، عليّ أن أفعل شيئاً. لديّ الكثير من العمل. الحقيبة. هذا العبء الثقيل

الذي أحتفظ به منذ سنوات. يجب أن أتخلّص منه. أيّ شيطان كان في رأسي وأنا أراكِم هذا؟

تسعون بالمئة من محتويات الحقيبة تمّ الاستغناء عنه. لا شيء يستحق أن أحتفظ به. قمامة تقريباً.. أشخاص لا أعرفهم. أماكن لم أرها في حياتي. أحداث لم تقع أصلاً. أوراق لا تخصّني.. يا له من إحساس رائع بالخفّة! أشعر كما لو أنّها كانت مربوطةً على ظهري طيلة كلّ تلك السنوات. أتنقل بها من مكانٍ إلى آخر. أنام بها، وأستحمّ، وأمشي، وأضاجع، وأكتب، وأحلم.. عرفت الآن سرّ الصداع المزمن الذي أعاني منه، وآلام الرقبة، والكوابيس، وانقطاع النفس، والدوار، والرعاف، وتشنّجات المعدة..

يقول لي طبيبي:

- لا شيء.. آثار ما بعد الصدمة فقط..

ومع أنّني لم أفهم ماذا يعني بالصدمة، فإنّني واثق من أنّ تشخيصه كان مغلوطاً. ولا ألومه، لأنّه لم يرَ حقيبتي على ظهري. وأنا بدوري لم أحدّثه عنها..

***

استوقفتني من بين كلّ ما عثرت عليه هذه الورقة المصفرّة المنزوعة من دفتر مدرسيّ مسطّر:

"أتيت لآخذ بعض الأغراض. لم أجدك طبعاً. لكنّني رأيت ملابسي الداخلية مغسولة ومطويّة. عطّرتها أيضاً؟ وهنالك أوراق ورد مجفّفة منثورة فوقها. ما الذي كان يدور في رأسك لحظتها؟ لم أسمع عن رجال يفعلون مثل هذا. تغسل لي ملابسي الداخلية..

أنا الآن أبكي..

أحبّك".

الأغلب أنّها تركت الورقة في ذلك اليوم على الطاولة. أو ربّما على باب الخزانة. أو على إطار المرآة في الحمّام. أتأمّلها قليلاً. ثمّ أفرك جبيني. من هذه الحمقاء؟ تأثّرت ببكائها قليلاً لكنّها مع ذلك حمقاء. مغادرتها بهذه الطريقة حماقة بكلّ تأكيد. ما من كلمة أخرى أدقّ. حماقة أن تدير ظهرها لكلّ شيء وتمضي.. وأنا؟ أنا أحمق آخر. ما الذي يجعلني أحتفظ بهذه الورقة؟

- قمامة..

أكوّرها في قبضة يدي، وأرمي بها.. بعيداً.. قد لا تكون لي أصلاً..

الآن فقط يمكنني القول إنّني لست غاضباً..

(١٢)

"أفضّل ألّا نلتقي. ندع ذلك لوقتٍ آخر"..

كتبت لعروة رداً على رسالته الأخيرة. هكذا باختصار ووضوح. لا يهمني كيف سيفهمها. كنت أعلم أننا لو التقينا فسنتحدث في موضوع سوسن ملّاك. وسينكر معرفته بها. وسأردّ عليه. وسينتهي اللقاء بمعركة.. وأنا لست جاهزاً لتحمّل أيّ هزائم إضافيّة..

لم أكن أعرف عروة المدني قبل الحرب. كنت أسمع به فقط. واحد من كبار مقتني اللوحات والتحف في تلك الأيّام. ويحسب له أنّه دعم الكثير من الفنّانين الشباب. اقتناؤه لعمل ما كان شهادة بجدارة صاحب هذا العمل، إذ لم يكن هنالك شك بذائقته إطلاقاً. لم يكن ميّالاً إلى أصحاب الأسماء الكبيرة، وكان يقول:

- هؤلاء فقّاعات. ثمّ إنّ لديهم من لن يقصّر معهم..

يعود الفضل إليه في تقديم معظم التجارب المهمّة في مجال التشكيل خلال فترة نشاطه.

***

(**بالمناسبة**: لعروة المدني شاربان يشبهان شاربي كمال الشناوي..)

***

بعد إفلاسه تحوّل إلى الكتابة في التشكيل يعتاش منها، إلى جانب ما كان يتلقّاه من أشقّائه من دعمٍ بين الحين والآخر. لم يخرج شهادته في طبّ الأسنان. بقيت في حقيبته بين الرسائل القديمة والصور وإيصالات الماء والكهرباء والهاتف والنظافة وسواها. كان يرى أنّها ليست مهنته.. كما أنّه رفض أن يبيع شيئاً من مقتنياته لينفق على نفسه رغم العروض المذهلة التي قُدّمت إليه. ظلّ يحتفظ بها في مخزن في إحدى ضواحي دمشق. تبرّع به إليه شقيقه الأصغر، وهو في الأصل إسطبل للخيول، أعاد عروة بناءه، وتجهيزه، بحيث أصبح تخزين المقتنيات فيه آمناً ولائقاً.

أواخر عام 2011 تعرّض المكان إلى القصف. وكان عليه أن ينقذ أولاده كما كان يسقي مقتنياته. أمضى أسبوعين يحفر في إحدى الهضاب القريبة، وينقلها إليها، بغرض دفنها. لم يكمل العمل، إذ اعتقل شقيقه في تلك الفترة، وعرف أنّه مطلوب هو الآخر، فغادر هارباً إلى بيروت، ومنها إلى فرنسا. هل قلت (السويد) سابقاً؟

الكثير من الأولاد تركهم في الإسطبل. لا يعلم عن مصيرهم شيئاً إلى الآن..

***

(**بالمناسبة أيضاً**: المشتركات بين جارتي ومديحة كامل تتجاوز المؤخّرة والثديين. هنالك بحّة الصوت أيضاً..)

***

بشكل عامّ أحترمه، وأحترم تجربته في الحياة. لكنني لا أرى مبرّراً للتنصّل من علاقته بامرأةٍ ميتة. كيف يتصالحون مع ضمائرهم، هؤلاء الذين لا ينسون فقط، بل يتنكّرون ويجحدون؟!

لا أشك في ضمير عروة وأخلاقياته، لكنّ من حقّي كذلك أن أستغرب، وأن أتّخذ موقفاً. لا تهمّني سوسن ملّاك هذه، فأنا لا أعرفها أصلاً، وكلّ ما بيننا هو لقاء وحيد، بدت لي فيه مجنونة، أو غير متّزنة. أتكلّم عن المبدأ. حيث الموت بالذات لا يحتمل سوى الصدق. لا يجوز استغلال ضعف الميّت وعجزه عن الدفاع عن نفسه لاتّخاذ مواقف غير حقيقية. لا يقتصر الأمر على إنكار أيّ صلة به، بل يتجاوزها إلى إنكار وجوده أصلاً!!

سوسن ملّاك المسكينة التي لم يعد لها وجود، لا بسبب موتها، بل بسبب نسيان أصدقائها لها!

بكلّ الأحوال لن ألتقي به هذه المرّة. ليس ضرورياً.

***

(**بالمناسبة**: جارتي مختفية منذ أيّام..)

***

يقول لي عروة إنّه سمع باسمي أوّل مرّة قبل ما يزيد على عشرين عاماً. قال إنّ امرأة ذكرت اسمي أمامه. لا يذكر من هي. غريب! ما قضّة هذا الرجل مع النساء؟ ينسى أم يتناسى؟ المهمّ أنّه حينها كان يفكّر في إصدار مجلّة مختصّة بالتشكيل، وأنّها رشّحتني للعمل معه. لكنّ المشروع لم يتحقّق. ظروف التمويل، والشروط المعقّدة للحصول على الترخيص، ومشاكل أخرى..

أحاول أن أستدرجه لمعرفة من تكون تلك المرأة. أسأله عن شكلها. حنطيّة؟ لها وشم؟ تضع صليباً؟ لضحكتها طعم السكّر؟ لكنّه ينكر..

- لا تحاول.. نسيت بالفعل..

ولم يكن ذلك لينطلي عليّ. أعلم أنّه يناور. غير أنّني لا ألحّ. أصمت هازّاً كتفيّ بطريقة توحي له بأنّني لا أبالي. أسلوبي القديم الذي أتقنته مع الأيّام في الردّ على من يحاول استفزازي..

يصمت هو الآخر، ولكن ليس طويلاً.. يضيف:

- نعم.. تذكّرت.. هنالك أمر واحد.. كانت تتكلّم عنك كما لو أنّك عشيقها..

ويقهقه كمجنون.. وأهزّ أنا كتفيّ ثانيةً..

***

(ملاحظة: تخلصت من الحقيبة..)

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

(١٣)

اختفى الضباب. الرؤية في أحسن حالاتها. والغضب تبدد تقريباً. أشعر بالاسترخاء. وأسخر من نفسي كلّما تذكّرتُ كيف كنتُ قبل قليل. متوتّراً ومضطرباً وخائفاً. لم يكن لذلك أيّ مبرر.

غير أنّ الوضوح الذي تبدّت عليه الأشياء من حولي نقلني إلى موضوع آخر يتصل بجارتي. هنالك ما يجعلني أشك بها. هذه المرأة خطيرة جداً. أخطر مما كنت أظن. ينبغي أن أحذرها. أن أحتاط معها. جميع محاولاتي السابقة للتعامل معها بقلب أبيض باءت بالفشل. وها هي تؤكد لي أنني لم أكن مخطئاً. لم أظلمها أبداً.

من أين جاءتها هذه القدرة الرهيبة على الخداع؟! كنت واثقاً أنها كذلك، ولكن ليس إلى هذا الحد.

أهمس بذلك لنفسي وأنا أتلفّت حولي متسائلاً:

- ماذا فعلتْ بهذه المدينة؟ كيف استطاعتْ أن تغيّر معالمها بهذه السهولة؟

كان سؤالاً جاداً، لأنني لاحظت بالفعل أنّ معالم المدينة، عندما تكشّف الضباب عنها، مختلفة تماماً. المدينة التي أعيش فيها منذ خمسة عشر عاماً، وأعرفها شبراً شبراً.. أكاد أقول إنه مكان آخر. لِمَ فعل المقاربة هذا (أكاد)؟ هو كذلك يقيناً. مكان آخر. أحتاج إلى القليل من الوقت فقط لأعرف اسمه. ليس غريباً عني..

أمّا لماذا أحمّل جارتي المسؤولية، فلأنني أراها الآن واقفةً فوق رأسي، وعلى وجهها ابتسامة خبيثة. كما لو أنها تسخر مني. تقول:

- أرأيت ماذا أستطيع أن أفعل؟

أكثر من ذلك.. لقد غيّرت من شكلها. ليس مرّة واحدة، بل عدّة مرّات. كلّما وقع نظري عليها أراها في شخصية مختلفة. نساء كثيرات أعرف بعضهنّ.. وأحياناً أراها في شكل رجل، أو طفل، أو حتى في شكل شخصية في قصّة أو مسرحية أو فيلم أو لوحة مرّت بي في يوم من الأيام..

كيف تفعل ذلك؟

لن أسألها طبعاً. أعلم أنها تخطّط لأمر ما. لكنني لن أهتمّ. سأفوّت عليها متعة الإمساك بي متلبّساً بالرعب والحيرة والدهشة.. هذا ما تنتظره مني، لتتمكّن من إعلان انتصارها عليّ..

ثم إنني لا أشعر بشيء من هذا..

والأهمّ أنني لا أستطيع.. ببساطة.. الرعب والحيرة والدهشة فوق طاقتي..

مسترخٍ إلى درجة الشلل. باردٌ إلى درجة التجمّد. ما من شيء دافئ سوى هذا السائل اللزج الذي يتدفّق من

جبيني. لو كان بوسعي أن أرفع يدي نحوه لأتأكد مما إذا كان دماً كما في المرة السابقة..

لا تكف عن هذه البهلوانيات. تتصرف كمهرج في سيرك. ولكن بثقل دمٍ مفضوح. لا أطيق هؤلاء الذين يعتقدون أنهم أذكياء، ويصرون على استعراض قدراتهم المتفوقة أمام الآخرين دون مراعاة لمشاعرهم أو أمزجتهم..

***

أشارت إلى ما حولها كما لو أنها تطلب مني أن أنظر. لم تقلها:

- انظر..

لكنني فهمت ما تعني. أرض مستجلبة من الماضي. لو أن الذاكرة تسعفني فقط. لو أن الوقت يسمح. قد تكون واحدةً من المدن التي أعرفها. أو قد تكون مدينةً أخرى لا وجود لها أصلاً..

ومع ذلك فأنا لست مهتماً كثيراً.. ما يشوش عليّ تفكيري هو هذا الخيط الدافئ اللزج الذي أشعر أنه يتسرّب من ثقب في جبيني. أريد أن أتأكد مما إذا كان دماً حقاً. لديّ شكوك تجاه الأمر..

ثم أشارت ثانيةً. انتبهت للتو إلى أنها لم تكن أرضاً، بل مستنقعاً.. بطريقةٍ ما حوّلت هذه الأرض الجافّة إلى مستنقع. كنت أطفو فوقه.. أرى عشرات الأشياء أيضاً.. المخدة التي كنت أغفو فوقها. حقيبتي مفتوحةً وفارغةً. لوحات ومنحوتات ودفاتر. أطباق طعام. علب سجائر. هنالك جثث أيضاً. موديلياني، وجيني، وفاتن، وسيمو، وسوسن ملّاك، وعروة المدني، وشقيقه الأصغر، وطبيبي الذي قال إنني أعاني من آثار ما بعد الصدمة. كانوا أشلاءً في الحقيقة. هنالك جثة جارتي نفسها. عارية. عرفتها من الوشم على عانتها الحليقة. هنالك ذبابٌ عند زاوية عينها البيضاء. وبقايا طعام على شفتها..

أرفع رأسي بصعوبة. أحاول أن أجد المكان الذي يتدفّق منه كلّ هذا الدم. لا. ليس من جبيني. لا أصدّق أن كلّ هذا يمكن أن يخرج من رأسي. لا بدّ أن ثمة مصدراً آخر..

بعيداً عليّ ببضعة أمتار ألمح باباً حديدياً.. عرفته.. باب زنزانة. أرجّح أنها الزنزانة التي أمضيت فيها ستة أشهر من عمري. لا أذكر أكثر من ذلك حتماً. ثلاث سنوات. عقود. قرون.. لمَ يبدو الزمن هنا عصياً على القياس؟!

من أسفل الباب، نعم، من هذا الشقّ الصغير، كان الدم يخرج قطرةً قطرةً. خيطاً خيطاً. سوطاً سوطاً. حلماً حلماً. صورةً صورةً. جثةً جثةً. ومدينةً مدينة.. لا شك أنه استغرق زمناً طويلاً إلى أن شكّل هذا المستنقع الواسع..

ليس مهماً..

مشهد مثير..

يجب أن أكون منصفاً. يجب أن أعترف لهذه المرأة بالبراعة هذه المرّة. تستحق الإعجاب فعلاً.. خفّة يد لا مثيل لها.. كيف تفعل هذا؟!

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025